البعث الإسلامي

شهرية إسلامية جامعة

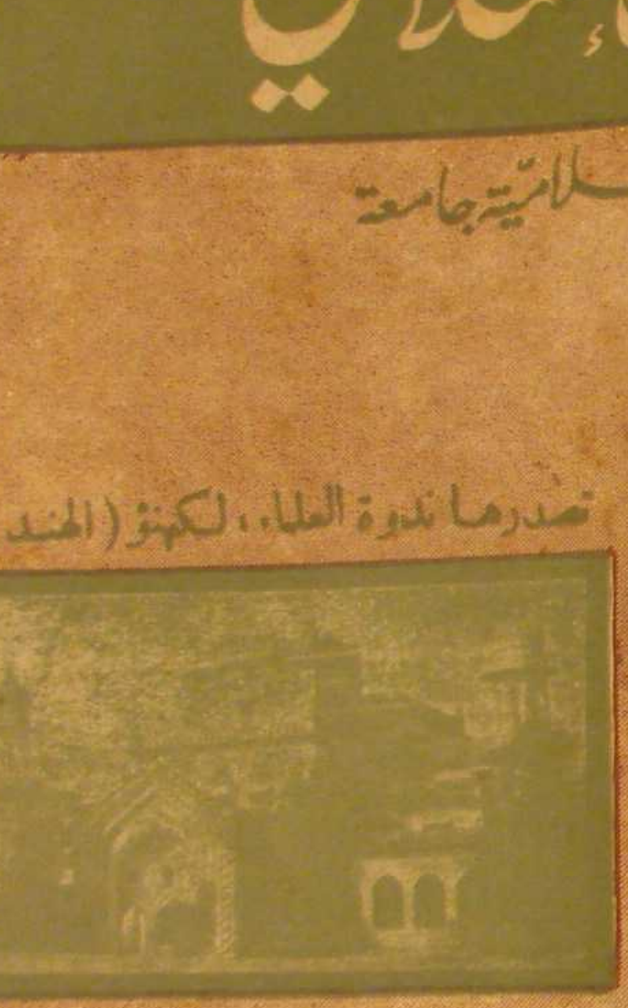

★ العدد الرابع

★ المجلد الثامن والعشرون

★ محرم الحرام ١٤٠٦هـ

★ اكتوبر و نوفمبر ١٩٨٣م

تصدرها ندوة العلماء، لكهنؤ (الهند)

PHONES. 49747-42948

REGD. NO. LW/NP 59

Albaas-el-islami

NADWAT-UL-ULAMA, LUCKNOW.(INDIA)

صدر حديثاً :

الطريق إلى السعادة والقيادة

للدول والمجتمعات الاسلامية الحرة

كتاب جديد صدر حديثاً لسماحة الشيخ العلامة أبي الحسن علي الندوي يخاطب فيه الدول والمجتمعات الاسلامية الحرة، ويبين لها الطريق إلى السعادة و القيادة .

إن الكتاب مجموعة ١٢/ محاضرة ألقاها سماحة المؤلف في باكستان بمناسبة حضوره هناك في المؤتمر الاسلامي الآسيوي الأول الذي عقدته رابطة العالم الاسلامي (بمكة المكرمة) في يوليو ١٩٧٨م في كراتشي .

تحدث فيه إلى كل قطاع من الناس من رجالات القانون و العلم و الفكر و خبراء التعليم و التربية و أساتذة الجامعات و طلابها و رجال الحكم و المناصب الرسمية لعلها إلى الجماهير العامة من المسلمين المخلصين .

وجه فيه نداء عاماً للانتفاضة الاسلامية التي تترقب يقظة المسلمين وصحوتهم .

و كل ذلك في أسلوب خطابي جميل ، و تعبير مؤثر جذاب .

الناشر : مؤسسة الرسالة - بيروت

ويطلب : من مكتبة دار العلوم التجارية

بندوة العلماء ص . ب ٩ لكهنؤ (الهند)

قام بالطبع و النشر جميل أحمد الندوي في مطبعة ندوة العلماء - لكهنؤ (الهند)

رئيس التحرير : سعيد الأعظمي

أخى القارىء

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته

حرصاً على تأمين و سلامة وصول المجلة إليك نرجو :

١— كتابة العنوان بالانجليزية و العربيـة كليهما فى ورقة خاصة ، كل حرف على حدة ، و ارساله إلينا .

٢— ارسال إشتراك بالقيمة المبينة أدناه باسم « البعث الاسلامى » مقابل عام واحد أو أكثر :

٣— يرفق شيك الاشتراك ضمن مظروف مسجل إلى العنوان المذكور أدناه .

٤— الاشتراكات السنوية .

فى الهند : ٣٥ روبية ، ثمن النسخة ثلاث روبيات و نصف .

فى العالم العربى ٩ دولارات بالبريد السطحى ، ١٨ دولاراً بالبريد الجوى .

فى أوربا و أفريقيا و أمريكا : ٩ دولارات بالبريد السطحى ، ٥ دولاراً بالبريد الجوى ،

فى باكستان بنغلاديس و دول شرق آسيا : ٨ دولارات بالبريد السطحى ، ١٨ دولاراً بالبريد الجوى .

A L B A A S E L I S L A M I

N A D W A T U L U L A M A

Po. Box. No. 93 L U C K N O W (INDIA)

البعث الإسلامي

شهرية إسلامية جامعة

أنشأها

فقيد الدعوة الإسلامية

الأستاذ محمد الحسنى رحمه الله تعالى

فى عام ١٣٧٥هـ ١٩٥٥م

العدد الرابع

المجلد الثامن والعشرون

محرم الحرام ١٤٠٤هـ

اكتوبر و نوفمبر

١٩٨٣م

أخى المسلم

أخى فى العقيدة و الدين لا فى التراب و الطين ، أخى على درب الايمان و الجهاد ، و طريق الشوك و القتاد ، أخى فى النضال و الكفاح و التضحية و الفداء ، أخى فى الحق و الصبر فى الوطن و المهجر ، أخى فى مهبط الوحى و منبع الصبح الصادق فى ليل الانسانية الغاسق ، أخى فى زهرة الصحراء و درة الخليج بين الرياح العاتية و الأمواج الثائرة ، أخى فى اليأس و الرجاء و الشدة و الرخاء ، أخى فى الله ! نقدم إليك هذه المجلة سلاحاً لك فى وجه الباطل ، زاداً لك فى طريق الايمان ، عوناً لك على نوائب الحق ، نصراً لك فى صراع النور و الظلام و معركة الجاهلية و الاسلام ، فليكن دورك فيها دور مرابط على الثغر ، حارس للأمانة ، أكثر من دور مشترك رسمى فى مجلة ، أوزبون فى محل تجارة !

[محمد الحسنى - رحمه الله]

رئاسة التحرير :

سعيد الأعظمى الندوى

واضح رشيد الندوى

المراسلات :

البعث الإسلامي

ندوة العلماء . ص . ب ٩٣

لكهنؤ — الهند

Albaas - el - Islami

NADWAT - UL - ULAMA

P. O. Box No. 93

LUCKNOW (I N D I A)

في هذا العدد

ركائز الدعوة السليمة في مواجهة العقول المريضة — سعيد الأعظمي — ٣

★★★ التوجيه الاسلامي

الاسلام و الغرب — سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الندوي — ١٠

نبوة محمد ﷺ ودلائلها من القرآن — الدكتور / التهامي نقرة — ٢٢

★★★ الدعوة الاسلامية

الحج وقفة و طواف — سماحة الأستاذ د/ عبد الله بافقيه الحسيني — ٣٠

★★★ الفقه الاسلامي

نظرية تاريخية شاملة في الاجتهاد — فضيلة الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي — ٣٥

بيان مذهب أهل السنة في الاستواء . . . . — سماحة العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز — ٥٣

★★★ دراسات و أبحاث

مقدمة المصفى شرح الموطأ — الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي — ٥٦

آراء الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي — الأستاذ سلمان الحسيني الندوي — ٦٣

كعب بن مالك الأنصاري — سعيد الأعظمي الندوي — ٧٠

الأدب الاسلامي في تراثنا التاريخي . . . — الأستاذ الدكتور فتحي عثمان — ٨٨

★★★ العالم الاسلامي

المجلة المجاهدة — فضيلة الشيخ عبد الله عبد الغني الخياط — ٩١

صور و أوضاع

الأحوال الشخصية للمسلمين وأدعياء الاصلاح — واضح رشيد الندوي — ٩٤

الأحداث الدامية في «سري لنكا» — » » » — ٩٦

العلامة الشيخ محمد طيب القاسمي في ذمة الله — سماحة الشيخ أبي الحسن علي الندوي — ٩٨

الافتتاحية :

ركائز الدعوة السليمة في مواجهة العقول المريضة

★★

المجهودات التي تبذل في مجال العمل لصالح الاسلام و غرس فكرته الشاملة في نفوس أفراد البيئات و المجتمعات المختلفة في دول العالم الواسع ، توكد لنا أن نسبة الاهتمام بدراسة الاسلام و نشر دعوته و رسالته لاتزال في تزايد مستمر ، وهي توفر لنا أكثر من دليل على عجز الأنظمة الوضعية عن مسايرة الحياة و استجابة حاجات الانسان و مشكلات المجتمع و قضايا الحضارة ، و عن مواجهة تحديات العلم والفكر المادي ، فلو أن الانسان الحديث كان قد أدرك ضالته في مواصفات المدنية الحديثة للحياة ، وفاز فيها بحلول ناجعة لمشكلاته وقضاياه الكثيرة المتنوعة التي فرضتها عليه الفلسفات المادية و الأفكار القاصرة ، لما تطلع إلى منهج أفضل للحياة و لم يحرص على متابعة سيره في البحث عن ملجأ يأوي إليه ، و لكن التزامه بخط المسير نحو الجهة التي تتكفل له النجاح في نهاية المطاف وتوديه إلى غاية منشودة إنما هو برهان ساطع على مطاوعته الفطرة التي فطره الله عليها .

ثم إن الدافع الأصيل للخضوع أمام الفطرة ، و الانسياق نحو الضمان الأكيد للسعادة ، هو إخفاق النظم السائدة كلها في منح الانسان ما يطمئن إليه قلبه ، و توجيه لحظات إليه تشعر فيها بلذة الحب و الأمن و الهدوء ، و يتمتع فيها من نعمة الاتصال بالسماء و التحليق في جو من شفافية العبودية و الدين الخالص ، لقد مر من خلال هذه التجربة معظم الفئات من الذين يتابعون دراسة الأوضاع الانسانية من كل نوع ، فلم يكن حظهم من كل ذلك إلا

أنهم باؤا بفشل ذريع فى درك ما نشدوه من وراء هذه التجربة، ورغم أن الحضارة الحديثة قد وفرت للمجتمع المعاصر أسباب الهناء والرخاء وكدست له من وسائل العلم و الصناعة ما يدهش الألباب ، ظل يعيش فى حيرة و قلق ، و تذمر و يأس ، من دون أن يذوق أعضاؤه لذة الحب و الايمان و يتمتعوا بالراحة و الحنان ، و من أحب أن يرى أمثلة ذلك فليفتش عن أشقياء الحضارات المادية و المجتمعات الشيوعية و ليتساءل عما يعيشون فيه من عذاب نفسى أليم « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون » .

إن تراجع الفلسفات المادية عن وصف ذلك العلاج الذى يتطلبه المجتمع المعاصر و إخفاقها فى مواصلة الريادة الفكرية بمعناهـا الأتم فتح باب التجارب أمام انسان هذا العصر لكى يتفقد دواءه فى خضم الأيدلوجيات والنظرات التى تتسابق إليه بشكل مثير جداً ، و إن طول الممارسة فى هذا المجال الحيوى قد بعث فى نفسه يأساً عن المستقبل ، و لعل ذلك ما دفعـه إلى تجربة الاسلام كمنهج عملى للحياة ، و دراسة فلسفته العميقة فى توجيه السعادة إلى الحياة و المجتمع ، و لو لا أن بعض الثورات التى قامت فى بعض أجزاء العالم الاسلامى بالانتماء إلى الاسلام لم تحد عن الخط الصحيح ولم تلعب بها يد الحدثان لكان الاسلام أقرب إلى هولاء الباحثين عن الحق ، ولكنها أساءت إلى الدعوة الاسلامية النقيـة و مثلتهـا أسوأ تمثيل ، حيث إن كثيراً ممن كانوا يرغبون فى الاهتداء إلى حياة إسلاميـة انصرفوا عن رأيهم و فترت همتهم ، و ساء ظنهم بالمسلمين و دينهم .

ليست الثورات ـ وحدها ـ التى حدثت بأيدى المسلمين فى الأقطار التى يسكنها المسلمون من العوامل التى أضرت بروح الاسلام ، و تكفلت تشتيت شمل المسلمين وبعثرة صفوفهم ، ولكن هناك دعوات تولت بلاغ الرسالة الدينية وشرح مفهوم الدين من غير تعمق وتفهم لحقيقته ، ومن غير مراعاة لحكمة الدعوة و اطلاع على أسرار

الشريعة ، و قد تكشف لدى بعض الدعاة إلى الاسلام أنهم لا يلتزمون الايمان الكامل بالعقائد الأساسية ، فقـد تراودهم شكوك حول ما يتصل بجانب الايمان بالغيب من الشرائع والعقائد ، و لكنهم يرون إلى الاسلام كنظام للحياة بازاء الأنظمة التى تقوم بوضعها فلسفات مادية ، ويعرضون شريعة السماء كالشرائع البشرية الأرضية ، و وجهة نظره كوجهات الأنظار و الأيدلوجيات التى صنعها قصار النظر و ضعاف العقل ممن يزعمون أنهم قادة الفكر ورائدو الحضارات وبناة الأمم المتحضرة والمدنيات الراقية .

لقد كان منهج الاسلام للحياة أكمل و أخلد من أى نظام و فلسفة ، و يستطيع أن يقود الانسان و يسود المجتمع فى كل لحظة من حيـاة الانسان ، و فى كل بقعة من بقاع الكون ، فلا مبرر لأى فرد أو جماعة أن يتناول تعـاليم الاسلام الواضحة الصريحة بأى تأويل أو تفسير من عند نفسه ، أو ينصف الدعوة و يثلثها نظراً إلى ظروف معينة أو مستويات مختلفة ، بل وإن أدنى نقص أو زيادة أو تعديل وتأويل فى بيان متطلبات الدين و شرح مفاهيم الشريعة لن يقبل من أى فرد ولا جهة ولا من أى مؤسسة و جماعـة ، و لا من أى مـدرسة أو مركز يقوم أو تقوم باسم الاسلام « إن الدين عند الله الاسلام » الكامل الذى لا يتأثر بالعوامل الخارجيـة ولا بالتأثيرات الاجتماعية ، وإن من يتظاهر بأتفه شك فى تعاليم الدين الخالصة وشريعة الله الخالدة و معتقداتها الأساسيـة فهو مرفوض فى نظر الاسلام ، و لا يسمح له بالقيام بأى عمل فى مجال الدعوة إلى الله و إعلاء كلمته ، فضلا عما إذا قام هناك من يطعن فى دينه و إيمانه ، بمسئولية الدعوة إلى الخير و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر .

الواقع أن إقصاء مثل هذا العضو عن ساحة العمل و الدعوة لا يقل وجوباً عن بتر العضو المسموم باصابات خارجية ، عن باقى الجسد للحفـاظ عليه ، فكما أن مصلحة الشخص المصاب تستوجب فصل العضو المسموم عن جسمه كذلك الرجل

الذى لا يستوفى شروط الدعاة يلزم إعفاؤه عن ساحة العمل و سيتم ذلك فى مصلحة الرجل و تفادى الدعوة من أضرار العقل المريض .

لا ينبغى فى أى لحظة أن يسمح للعقليات المريضة بادلاء دلوها فى أعمال الدعوة و الكفاح ، و إذا تسرب إلى صفوف العاملين و المفكرين ناس مشبوهون ، أو مدفوعون من جهات هدامة إلى صفوفهم لكى يتناولوا الدين بالتفسيرات التى تتفق و أهواءهم ، فلا شك أنهم يهدمون أكثر مما يبنون ، و يشوهون صورة الدين الأصيلة بأفكارهم الخاصة و لا يبالون بما إذا انحسر مفهوم الدين فى تقاليد و عادات وطقوس ، أو توسع مفهومه إلى ما ليس منه ، ولا يمت إلى الفكر السليم ، والايمان بالغيب ، و بالمعتقدات الأساسية بصلة ما .

إن هذا الوضع المشين لأى دعوة ينذر بخطر ذوبانها بله أن تزدهر و تنتصر ، وفضلا عن أن تنشر السعادة و السلام فى المجتمعات الانسانية ، أما إذا واجهت دعوة الاسلام مثل هذا الوضع على أيدى أناس لم يتقنوا فهم الاسلام ولم يصح إيمانهم بأسس الدين و مفاهيمه الواضحة فماذا تجنى الدعوة من أمثالهم ؟ ، و هل ما حل بالاسلام و أتباعه من كوارث الرفض و المؤامرات والنقمة و العداء إلا نتيجة لهذه الأوضاع الشاذة التى تولتها العقول المريضة .

و من ثم فانى أرى أن تكون ركائز الايمان و دعائمه الأصيلة هى قاعدة انطلاق الدعوة الاسلامية ، و محور بلاغها إلى العالم كله ، مع مراعاة الحكمة التامة فى توجيه تعاليم الدين إلى الناس أفراداً و جماعات و شرح العقيدة الخالصة التى لا يتم الاسلام بدونها ، ودحض كل باطل من البدع و الخرافات و الضلالات التى ألصقها الناس بالدين ، و ليست من الدين فى شئ .

ولذلك فانه لابد من أن تكون الدعوة الاسلامية صورة كاملة للاسلام الحقيقى

ويكون الداعى مثالا عملياً و نموذجاً حياً لتلك الصورة التى تمثلها الدعوة ، و حاشا أن يعرفها الناس نظرية ونظاماً و أيديولوجية فحسب ، شأن الدعوات المادية و الأنظمة الوضعية ، بل يجب أن يعرفوها عقيدة و إيماناً و منهاجاً و عملا « و ما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، و يقيموا الصلاة و يؤتوا الزكاة و ذلك دين القيمة » فلتكن دعوتنا مؤسسة على الركائز الايمانية التالية :

١ — الايمان بالله و رسوله و ملائكته ، مع الايمان بالغيب .

٢ — الايمان بالعقائد الأساسية من التوحيد الكامل ، و الرسالة و البعث و الآخرة و الحساب ، و الجنة و النار ، و ما فيهما من ثواب وعقاب ، و القدر خيره و شره

٣ — الايمان الكامل بأن الله سبحانه هو الخالق الحقيق ، وبه تتعلق حياة الانسان برباط وثيق لا يكاد يستغنى عنه فى أى لحظة ولكنه يراه متمثلا أمامه لدى كل عمل و نشاط ، و كل حركة و سكون ، و عند كل تفكير و تدبير ، فهو الذى يستعان به فى كل صغير و كبير ، و هو الذى يقصد رضاه من كل شئ ، و هو الذى بعث رسوله الأخير محمداً ﷺ رحمة للعالمين وشارحاً لرسالته و مبيناً لأحكامه ومفسراً لتعاليمه بطريق الوحى الذى أنزل إليه ، فيجب الايمان بنبوته والعمل بسنته وامتثال أوامره بالطاعة لله ولرسوله ﷺ مع الابتعاد الكامل عن كل شرك ومظاهره سواء بتعظيم مكانة النبى ﷺ واعتباره مرجعاً للامور كلها ، أو بالخضوع أمام الأصنام و الأوثان ، أو بالاعتقاد فى الخلق بالقدرة التى لا حق فيها لغير الله أبداً « و من يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » .

هذه إشارة عابرة للركائز الايمانية التى تتطلبها الدعوة الاسلامية لكى تأتى بنتائج طيبة منشودة مرجوة . و يعم بها الفهم الصحيح لدين الله ، و يتزايد إقبال

الناس على طلب الحياة التى يصنعها الاسلام و يدعو إليها الناس « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا و من اتبعنى و سبحان الله و ما أنا من المشركين » .

أما أن يتحول عمل الدعوة الاسلامية إلى عمل العادة أو « الروتين » فيحمل لوامها كل من أراد ، و يفسر مفهومها كيفما شاء ، و يتخذ لأداء مسئوليتها أى أسلوب أو طريق ، دون أن يبقى بين عمل الدعوة الاسلامية و أعمال التحركات و النشاطات البشرية الأخرى أى فرق ، فلا يقر بذلك الاسلام ، و إنما يتبرأ عن الأساليب و الطرق الدعوية الأخرى ، وقد رسم لنا الاسلام عن طريق نبيه ﷺ و أصحابه و أتباعهم البررة الكرام أسلوب العمل و الدعوة و التبليغ ، و بين العلاقة المتينة الوثيقة بين القول و العمل و أن التناقض فيهما جالب للمقت والكراهية عند الله عز و جل « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » و قد جعل فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة للمؤمنين كلهم ، دعاة كانوا أو مدعوين ، حكاماً كانوا أو رعية ، ففى حياته كل ما يريده المسلم من منهج وسلوك ، و ما يبحث عنه من نموذج عملى لكل جانب من جوانب الحياة الفردية و الجماعية « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » .

إذا أسسنا عمل الدعوة على أساس الايمان والعمل ، و العقيدة والسلوك ، و قمنا بقيادة المسيرة فى ضوء الشريعة بكل أمانة مع الاستعانة الكاملة بالله تعالى فى كل خطوة ، و بغية رضى الله و طاعته ، لجنينا ثمرة المجهودات الدعوية يانعة جنية ، و رجعنا منها بنتائج إيجابية واسعة المدى ، و لم نسمع باخفاق البرامج التى توضع لتثبيت دعائم العز و الايمان فى المجتمعات البشرية ، و تلقينا نجاحاً كبيراً فى هذا المجال بدون شك من خلال الوسائل و الامكانات المتاحة المتوفرة ، و الله ولى التوفيق فى كل حال و مجال ؟ .

سعيد الأعظمى

التوجيه الإسلامي

- الاسلام و الغرب
- نبوة محمد ﷺ
و دلائلها من القرآن

الاسلام و الغرب

سماحة الشيخ السيد أبي الحسن على الحسنى الندوى

[بحث عرض فى الاحتفال الذى عقد فى جامعة أوكسفورد فى ٢٢ من يوليو سنة ١٩٨٣م بمناسبة افتتاح « مركز إسلامى » فى رحاب جامعة أوكسفورد الشهيرة العتيقة ، حضره لفيف من أساتذة الجامعة و المثقفين البريطانيين ، و العاملين فى مجال البحث و التحقيق و العمل الاسلامى .

نقله إلى العربية الأستاذ السيد سلمان الندوى — التحرير]

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على سيد المرسلين و خاتم النبيين محمد و آله و صحبه أجمعين .

سادتى ! أشكركم قبل كل شئ على دعوتكم إياى لحضور هذا الاحتفال الذى طلب للبحث فى موضوع منير مثير كموضوع «الاسلام و الغرب» ويقوم فى رحاب جامعة « أوكسفورد » (OXFORD) إحدى جامعات العالم الموقرة العتيقة المعروفة ، و ذلك ينم عن روح الاستطلاع و الريادة الفكرية فى المنظمين لهذا الاحتفال ، ويحمل أهمية رمزية لها مدلولها الكبير ، وأشكر الدكتور د - ج - برونننغ (Dr. D. G. Brownning) وزملاءه بصفة خاصة إذ وجهوا إلى الدعوة لحضور مثل هذه المناسبة و الحديث فيها ، و اللقاء مع السادة الفضلاء و الطلاب الأعزاء .

سادتى ! إن أول شعب و أول بلد من الشعوب و البلدان الأوربية اتصلا بالعالم الاسلامى فى أواخر القرن الثامن عشر هو الشعب البريطانى ، فقد بقيت بريطانية الزعيمة الأولى للحضارة الغربية و رائدة التعليم الغربى و العلم و التكنالوجيا الغربية ، ومظهراً من مظاهر القوة والانجازات الضخمة فى عدد من الدول الاسلامية ، لاسيما شبه القارة الهندية و مصر ، ردحة طويلة من الزمن ، و بغض النظر عن طبيعة هذا البقاء و شرعيته — فهو أمر خارج من نطاق هذا البحث — كان من المعقول المتوقع — عقلياً ونفسياً — أن تغنى بريطانيا — حكومة و شعباً — بأقوى الديانات السائدة فى مستعمراتها و أكثرها حيوية ونشاطاً وتأثيراً ، وتهتم بدراستها و اكتناه روحها و جوهرها ، الديانة التى قامت فى الماضى بأكبر دور ثورى وبنائى فى تاريخ العالم الطويل الممتد على آلاف من السنين ، و خلفت طابعاً واضحاً خالداً على الحضارة الانسانية والمجتمع الانسانى ، بل يصح أن نقول: إنها أنقذت الحضارة الانسانية والمثل العليا من الابادة الكاملة ، ووهبتها قسطاً جديداً طويلا من الحياة ، إنها أنشأت قوة خيرة صالحة لمقاومة القوى الهدامة ، و مكافحة الشر و الباطل ، وكانت ترى ذلك هدف وجودها ، وغاية ظهورها ، إنها بدلا من أن تهلك الحرث و النسل — كما فعلت بعض القوى العسكرية و القيادات الجبارة الماضية — حولت تيار الحياة ، و أرغمت التاريخ على أن ينحو نحواً جديداً ، و لم يكن فى ظلال جهودها و تضحياتها أن تقطع الحضارة البشرية أشواطها و تواصل رحلتها إلى الامام فحسب ، بل أصبح لها ذلك سهلا ميسوراً ، إن هذه الدعوة التى ظهرت فى القرن السابع المسيحى وهذه الجهود العظيمة التى قامت بنشر عقيدة التوحيد على نطاق عالمى واسع لم يسبق له فى التاريخ البشرى مثيل ، و أعادت إلى الانسان كرامته و اعتباره ، و أرست دعائم المساواة و الأخوة الانسانية فى العقول و النفوس من جديد ، و أثبتت أنها

حقيقة بديهية لا تحتاج إلى تأمل عميق ، إنها أعادت إلى المرأة حقوقها و كرامتها الضائعة ، و أقامت صلة قوية متينة بفاطر الكون ، و عاطفة قوية مستحكمة لحب الله وخشيته ، وعبادته واستعانته ، و عقيدة راسخة ، و ايماناً ثابتاً لم يوجد له بهذه السعة فى تاريخ الديانات و الروحانيات نظير و لا مثيل ، إنها أنشأت رغبة جامحة فى الأعمال الخيرية والنظر إلى السلالة البشرية ، كعيال الله ، و إلى خدمتها ونفعها كعمل يتقرب به إلى الله ، وأثارت ظمأ ونهامة للعلم ، وخدمته ونشره ، و ولوعاً بالكتابة و التأليف ، حتى تكونت مكتبة عالمية من المستحيل استعراضها ، فضلا عن الاحاطة بها ، و يصعب العثور على نظيرها فى الشعوب الماضية و التاريخ القديم ، هذه كلها حقائق تاريخية لا يسع أى إنسان مثقف جحودها أو الشك فيها .

كان كل ذلك يقتضى بطبيعة الحال أن تقوم فى كل بقعة من بقاع بريطانيا مراكز علمية و فكرية لدراسة القرآن الكريم ، والسيرة النبوية - على صاحبها ألف ألف صلاة و تحية - دراسة مجردة مخلصة ، و أن توفر وسائلها و إمكانياتها بأريحية و سخاء ، و أن تشجع دراساتها الموضوعية (Objective) التى تتحرر من رواسب الحروب الصليبية الملموسة و غير الملموسة ، والأهداف و المصالح السياسية والدعوية و الدعائية ، وتتحرر من مركب الاستعلاء (Superiority Complex) الذى يكون - فى غالب الأحيان - نتيجة السيطرة السياسية ، و الحكومة القوية ، و الذى يحول بين الدارسين و بين التأملات الحيادية و الدراسات المنصفة لثروة الشعوب والبلدان المغزوة الضعيفة ، العلمية ، و معتقداتها و مسلماتها ، والتقدير الصحيح لقيمتها و أهميتها ، و لا أريد هنا أن أقلل من قيمة قسم اللغة العربية ، و قسم الدراسات الاسلامية (Islamic Studies) فى الجامعات ، و قسم حضارة غرب آسيا (West Asian Culture) و كلياتها ، و الحط من شأنها و الاستهانة بقيمتها ،

و لكن القضية كانت أعمق من هذا و أوسع بكثير ، و كانت تتطلب عمق النظر و رحابة الصدر ، و سعة الأفق ، و الاخلاص و النزاهة ، أكثر من الدراسات الخاضعة للصالح المادية و الاقتصادية .

و لكن الواقع أنه لم يكن فى هذه المدة التى تمتد على أكثر من قرن ، بين بريطانيا و مستعمراتها ، بل بين الشرق والغرب ، إلا اتجاه واحد (One Way Traffic) — أعنى أن الدول الغربية لم تعامل الدول الشرقية — حتى ولو كانت تملك ثروة عظيمة من المعرفة و الحضارة — إلا معاملة المنح و الاعطاء و التعليم و التثقيف ، وتربية رجال يخدمون مصالحها ، و صياغتهم صياغة خاصة ، و لم تشعر بحاجة إلى أن تقتبس منها شيئاً ، وتستفيد بدورها ، وما من شك أن لضعف الشرق و « مركب النقص » (Inferiority Complex) الموجود فيه و « دهشة الفتح » التى أصيب بها ، ولفقده الثقة بنفسه و الاعتداد بذاته ، تأثيراً فى موقفه ، ولم تكن فيه - إذ ذاك - أثارة من الشعور بالرسالة السامية ، و الشجاعة الايمانية ، والروح الدعوية ، التى دفعت فى أوائل القرن السابع المسيحى إنساناً — بأبى هو و أمى — كان يجلس لى الحصير ، فى إحدى مدن الجزيرة العربية (التى كانت تسمى «يثرب» ثم أطلق عليها اسم المدينة) و قد أكرمه الله تعالى بمنصب النبوة و الرسالة — أن يوجه إلى ملكين من أكبر ملوك الأرض حينئذ ، كانا قد توزعا العالم المتمدن المعمور ، و هما امبراطور المملكة البازنطينية الرومية هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) وكسرى إيران خسرو أبرويز الثانى (٥٦٠ - ٦٢٨ م) رسائل تحمل إليهم دعوة صريحة مكشوفة إلى التوحيد الخالص والدين الحق ، وجاءت فى مفتتح الرسالة الأولى الآية القرآنية الكريمة .

« يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لا نعبد إلا الله

و لا نشرك به شيئاً و لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (آل عمران — الآية ٦٤) .

و من الممكن جداً أن يكون يوم أملى هذه الرسائل لم توقد فى بيته نار ، و لم يدخل جوفه طعام ، و لم يكن فى بيته زيت للسراج (و لم يكن ذلك غريباً أو نادراً فى منزله) و أن يكون — على العكس من ذلك — عبيد أولئك الملوك الذين وجهت إليهم هذه الرسائل و عبيد عبيدهم ، و خدمة خدمهم مصابين بمرض التخمة ، و تكون كلابهم المدللة تأكل من أطايب ما لا يتيسر لكثير من الناس المحترمين .

ثم لما وصل أتباع هذا الدين ، و الدعاة إليه ، إلى قادة جيوش هذه البلاد و عظماء الدولة ، و أركان المملكة ، و سألوهم : ما الذى جاء بكم ؟ كان جوابهم الوجيد الحاسم :

« الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها و من جور الأديان إلى عدل الاسلام (١) » .

إننى لا أدهش لقولهم : « لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده » إذ أنهم كانوا الدعاة الأولين إلى التوحيد ، و المتزعمين الوحيدين للدعوة إلى الحرية الانسانية ، و لكنى أدهش لقولهم « ومن ضيق الدنيا إلى سعتها » إننى أدهش أن هؤلاء البدو الفقراء الذين كانوا فى جهد من العيش ، قد لا يجدون ما يقيم صلبهم ويسد رمقهم ، كيف واجهوا تلك الشخصيات الحاكمة التى كانت تحكم مئآت الآلاف من الأميال فى الأرض والذى سيقت إليها و تكدست حولها وسائل الترف و البذخ ، بهذه الكلمة العجيبة القارعة : إننا نخرجكم من ضيق الدنيا إلى

(١) البداية و النهاية لابن كثير ج ٧ ص ٣٩ ، طبع بيروت ١٩٦٦م .

سعة الدنيا ، فما كان ذلك الضيق ، و ماذا كانت تلك السعة يا ترى ؟ ! إن هذه الكلمة تدل على أنهم كانوا لا يعتبرون هؤلاء الملوك و الأمراء أصحاب سعادة ونعمة تتحلب لها أفواههم ، و تتقطع ورائها أنفاسهم ، بل كانوا يعتبرونهم جديرين بالرحمة و الرثاء ، و الاستهانة و الازدراء ، لأنهم كانوا — فى نظرهم — أسرى المادية و النفس ، و عبيد العادات و التقاليد ، و المثل و الأعراف ، المنحوتة المصطنعة ، عالة على أناس أقل منهم شأناً ، و أحط منهم مكاناً ، و كانوا يرونهم كطائر مفرد جميل حبس فى قفص من ذهب هو دنياه التى فيها يطير .

إن الشباب الأذكياء الطامحين الذين كانوا يرحلون من البلاد الشرقية الآسيوية — التى كانت تحت السلطة البريطانية ، أو تحت إدارتها — إلى الجامعات البريطانية للتعليم العالى ، كان النادر فيهم من يتصف بالاعتماد على الله و الاعتداد بالذات ، الذى يبعث زملاءهم و أترابهم من الطلاب — إن لم يكن يبعث أساتذتهم و مربيهم — على دراسة الدين الذين ينتمون إليه وفهم الأمة التى يرتبطون بها ، و لا يدع لمعان الحضارة الحديثة و بريقها ، يخطف أبصارهم ، و يخلب ألبابهم .

و سنكون جائرين و مقصرين إذا لم نذكر بهذه المناسبة بعض الشباب المثقفين بالثقافة العالية الذين اقتطفوا من المناهج الدراسية المقررة فى الجامعات البريطانية السائدة فى الهند ، و الذين اتخذوا اللغة الانكليزية وسيلة لابداء آرائهم و عرض أفكارهم ، ونالوا الاعجاب و الثناء من أبناء هذه اللغة وأساتذتها ، واعترف عدد من علماء هذه البلاد و باحثيها بأنهم زادوا فى معارفهم ، و غذوهم فكرياً ، كان من بينهم الباحث الأديب السيد أمير على الذى يقول المستشرق آسبرن (Osborn) عن كتابه (Sprit of Islam) :

« إن هذا الكتاب يستحق الاعجاب و الثناء ، و يدل أسلوبه على أن مؤلفه

متمكن من اللغة الانكليزية تمكناً تاماً ، و قليل من أصحاب هذه اللغة من يجاريه فى أسلوبه، إن هذا الأسلوب بريئ من تلك العيوب التى قل من يخلو منها من المثقفين الهنود بالثقافة الانكليزية ، فهيئاً لمسلمى الهند أن يكون فيهم أفراد يحتلون هذه المكانة المرموقة » .

و الشخصية الثانية هى شخصية الدكتور محمد اقبال ، الذى ترجم المستر نكلسن البروفيسور المعروف فى جامعة لندن ، كتابه (أسرار خودى ورموز بے خودى) إلى الانكليزية ، و قد ذكر فى المهرجان المئوى الذى عقد بمناسبة مرور مئة سنة على وفاة الدكتور محمد اقبال فى ديسمبر عام ١٩٧٧م بلاهور ، تحت إشراف الحكومة الباكستانية ، أن ما ألف حول الدكتور محمد اقبال ، فى مختلف لغات العالم من كتب و رسائل ، لا يقل عددها عن ألفين ، و فيها عدد كبير ألف باللغة الانكليزية .

و تحضرنى فى هذه المناسبة اضطراراً ذكرى زعيم الهند البعيد الصيت ، القائد العصامى لحركة التحرير ، ومشعل هذه الحركة فى الجماهير ، المسلم المتحمس الشجاع ، وأديب الانكليزية البارع ، والصحافى المقتدر ، والخطيب المصقع الساحر (مولانا) محمد على جوهر مدير (COMRADE) الصحيفة الانكليزية السيارة ، الذى كان خريج جامعتكم أوكسفورد هذه ، و الذى كان يذكر مع اسمه دائماً (آكسن) «OXON» و لكن هؤلاء الأفراد القلائل ليسوا بالنسبة إلى أولئك الشباب الأذكياء أصحاب الصلاحية و الكفاءات الممتازة ، الذين يتجاوز عددهم الآلاف — الذين كانوا يرحلون من الهند إلى انكلترا للتعليم العالى ، و يعودون منها بشهادات جامعية إلى الهند — إلا أفذاذاً لا يجاوز عددهم الأصابع ، و بهذا الاجراء الذى كان فى اتجاه واحد ، لم يلتفت كلا البلدين إلى الاسلام كما كان يتوقع منهما ، فلم يكن بريطانيا فى جانب ، حيث كان يفد آلاف من الشباب المسلم للدراسة من مستعمراتها الآسيوية

الواسعة ، و فرنسا فى جانب آخر ، حيث كان يرد مئات من الشباب المسلم من بلدان شمال إفريقيا التى كانت تحت سلطتها و انتدابها ، لم يكن لهما أن يعيرا الاسلام شيئاً من عنايتهما واهتمامهما ، لأن هؤلاء الشباب الوافدين كانوا خلواً من ذلك الحماس و الاعتماد على النفس والروح الدعوية الثائرة التى كان يتمتع بها العرب الأميون فى القرن السابع المسيحى ، مع أن التفاوت الذى كان بينهم و بين بلاد الروم و الفرس المتمدنة الراقية ، كان أعظم و أوسع بكثير مما كان بين شباب الهند و مصر و شمال إفريقيا ، وبين البلدان الغربية ، فقد كانت عند هؤلاء الشباب فكرة عن الحضارة الغربية و الرقى الغربى فى بلادهم ، ولم تكن بلادهم أحط شأناً وأكثر تخلفاً من الجزيرة العربية فى القرن السابع المسيحى .

إن الوضع الذى تقع مسئوليته على الفريقين لم يهيئ فرصة لدراسة الاسلام و التأمل فيه من المستوى الذى كان يستحقه ويليق به ، والذى لا يستغنى عنه مجتمع واقعى ناشئ ، و حضارة واقعية ناشئة ، و عندما بدأ العلم الحديث و التكنالوجية الحديثة فى منتصف القرن التاسع عشر رحلتهما السريعة ، كانت لهما الفرصة الذهبية لتستفيدا من الدين ـ الذى كان الاسلام يمثله الحى القوى ـ الأهداف الصحيحة لاستخدام العلم و الطاقة ، و العواطف النبيلة لخدمة الانسانية ، و أن تقتبساً منه القدرة على تملك زمام النفس و كبح جماحها ، و أن تقتبساً منه منهجاً فكرياً ، و نظرية عالمية لاحترام الانسانية ، و النظرة إلى الشعوب و الأمم السامية على القومية الضيقة والوطنية العمياء ، وأن تحترزا من هذه المسابقة المجنونة بين البلدان و الشعوب فى التظاهر بالقوة و الطاقة الذرية ، التى أشرف بها العالم على الانتحار ، و النار و الدمار ، و أن يقرع آذان سادة الشعوب و البلاد و قادة الحضارة النداء العلوى الخالد :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض و لا فساداً و العاقبة للمتقين » .

(سورة القصص الآية ٨٣) .

إنه لو كان العلم و التكنالوجية الحديثة يرافقهما خشية الله فى السر و العلن ، و احترام الانسانية ، ولو كانت الأهداف الكريمة الصالحة مقرونة بالوسائل القوية ، و الامكانات غير المحدودة ، و لو كانت عاطفة التعاون على البر و التقوى (التى لا يعطيها إلا الدين الحى القوى) مكان عاطفة المسابقة المجنونة لكانت الدنيا غير الدنيا ، و لكان العالم أجمع يعيش كأسرة واحدة مترابطة متوادة ، بدلا من هذه الكتل الشرقية و الغربية المتناحرة ، التى تكاد تؤدى عداواتها و حزازاتها بالحضارة الانسانية ، بل الأجيال البشرية كلها . إلى الهلاك الذريع ، ولكن رقى العلوم المادية و التكنالوجية الحديثة و السياسة ، الحر المنطلق من كل الضوابط و القيود أحدث خطراً كبيراً لانتحار العالم بمخجره نفسه ، كما يقول الدكتور محمد اقبال :

« إن هذا الفكر المارد الذى فضح قوى الطبيعة و أفشى أسرار الكون ، انقلب اليوم برقاً خاطفاً ، و رعداً قاصفاً ، يهدد عش الغرب و وكره ، و حصنه و معقله (١) .

سادتى !

إننا لابد أن نعترف و نقرر بكل صراحة أن حضارتنا الجديدة و القيادة الفكرية المعاصرة ، أخفقت إخفاقاً ذريعاً فى القيام فى إعداد الأفراد الذين ينهضون بمسئوليات المجتمع الانسانى ، و تربية السلوك الانسانى ، إن العلم الحديث يستطيع أن يقتنص أشعة الشمس ، و يعد أسرع الوسائل و آمنها لرحلة الفضاء ، و يبلغ

(١) « روائع اقبال » لصاحب المقال .

بالانسان إلى القمر و الكواكب ، و يستخدم الطاقة الذرية فى المشروعات الهائلة و الانجازات العظيمة ، و يزيل الفقر من البلاد ، و يصل بالانسان المعاصر إلى ذروة التطور و الرقى ، و يعلم شعباً جاهلا بأسره ، و يثقف أمة أمية بحذافيرها ، إن هذه الفتوحات و الانتصارات لا يسع أى انسان أن يقف منها موقف المنكر الجاهد ، و لكن القيادة الفكرية الحاضرة عاجزة تماماً عن إنشاء أفراد صالحين مؤمنين ، و هذه هى أكبر هزائمها و خسائرها ، و لأجل ذلك تضيع جهود قرون و تذهب هباءاً منثوراً ، و يصاب العالم بالفوضى و اليأس ، و يزول اعتماده على العلم واقتناعه به ، و يخاف أن تنطلق فى العالم حركة رد فعل عنيف و ثورة مدمرة ضد العلم و المدنية ، فقد حول الأفراد الفاسدون هذه الوسائل و الأدوات البريئة الصالحة ، وسائل فاسدة ومعاول هدم و تدمير ، إنه لا يمكن أن تعد سفينة صالحة من ألواح منخورة فاسدة ، فاذا ركبت بعضها مع بعض و صنعت منها سفينة ، انقلبت رأساً على عقب و عادت صالحة ، و أن يكون اللصوص و قطاع الطريق ، لصوصاً وقطاع طريق ، فاذا كونوا لهم هيئة أو جماعة فهى جماعة مقدسة من الحراس و أصحاب المسئولية ، إن الأفراد الذين قدمتهم لنا القيادة الفكرية الجديدة فارغون من الايمان و اليقين ، مجردون من الضمير الانسانى ، محرومون من الحاسة الخلقية ، جاهلون لمعنى الحب و الاخلاص ، غافلون عن كرامة الانسان و شرفه و مكانته ، انهم لا يفهمون غير اللذة و الجاه ولا يعرفون غير القومية و الوطنية ، إن مثل هؤلاء الأفراد فى نوعيتهم و صلاحيتهم ، سواء كانوا حكاماً فى الأنظمة الجمهورية ، أو مسئولين عن النظام الاشتراكى لا يقدرون أبداً على إيجاد مجتمع فاضل ، و بيئة آمنة ، وجماعة مؤمنة تخشى الله فى السر و العلن ، و لا يمكن الثقة بهم و الاعتماد عليهم فى مصير خلق الله ، و الأسرة البشرية الكريمة .

سادتى !

فى مثل هذه المرحلة العصيبة الدقيقة التى لايتعرض فيها بلد واحد من بلدان العالم لخطب ، بل تتعرض الحضارة البشرية بأسرها ، لخطر الفناء والدمار ، لاتغنى الجهود العادية المتحفظة ، ولا يغنى العاملون فى مجال التعليم و الاصلاح على الدرب السليم ، إنه لا يمكن أن ننكر فضلهم و دورهم فى الظروف العادية ، و لكن فى مثل هذه الظروف غير العادية ، التى بلغت فيها الحياة مفترق الطريق بين الموت و الحياة ، لابد من جرأة خلقية و تضحيات جسيمة و مخاطرة و مغامرات على المستوى العالى ، ولابد من وجود أفراد عباقرة (Genius Men) أولئك الرجال الذين نزعوا الحضارة الانسانية فى كل عصر من بين فكى الأسد ، سامحونى أيها السادة إذا قلت : إن الغرب الذى ولد فى الماضى شخصيات عبقرية نابغة فى العلوم العمرانية والصناعة والعلم الحديث و السياسة و نظم الحكم ، غيرت بجهودها خريطة العالم ، و اعترف العالم كله بفضلهم و تفوقهم ولم ير بدآ من الاستفادة من جهودهم و تجاربهم ، إن هذا الغرب يخيم عليه منذ زمن طويل الجمود ، إنه يخلو من تلك الشخصيات العبقرية التى يفتقر إليها لقيادة الحضارة الانسانية و المجتمع الانسانى الجديد ، وتحويل وجهة العالم والتكنالوجيا ، من الهدم والتدمير إلى البناء والتعمير ، و إيجاد القوة الخلقية التى تضبط النفس و تلجم الشهوة لحماية المجتمع من الفوضى والفساد ، وتوحيد القوى المتصارعة و الكتل المتناحرة ، إنه يخلو من دور الأبطال وشجاعة الرسل و الأنبياء ، التى هو أحوج إليها من كل يوم مضى ، لقد قال أحد العلماء المختصين فى العلوم الغربية و الذى طالت إقامته فى الغرب قبل أكثر من نصف قرن ، الدكتور محمد إقبال عن الحضارة الغربية و البيئة الغربية .

« إن نور الحضارة باهر و شعلة حياتها ملتهبة وهاجة ، و لكن ليس فى

ربوعها من يمثل دور موسى ، فيتلقى الهداية والالهام و يبدد باليد البيضاء الظلام ، و لا من يمثل دور ابراهيم عليه السلام ، فيحطم الأصنام و يحول النار إلى برد و سلام ، إن عقلها الجزئى يغير على ثروة الحب ، و ينمو على حساب العاطفة ، إن عمالقتها و ثوارها قد طغى عليهم التقليد ، فلا يخرجون — حتى فى ابتكارهم و ثورتهم — عن الطريق المرسوم و الدائرة المحدودة (١) » .

إنه لابد - الآن - لحماية الحضارة الانسانية و حماية الغرب نفسه — الذى يعد بريطانيا فرداً كريماً محترماً من هذه الأسرة ويحمل تاريخاً رائعاً من قوة الارادة و علو الهمة و الذكاء و الطموح — من الجهود العلمية و الفكرية الثورية الواقعية المخلصة والجهود الجريئة المغامرة التى تنفخ فى هذه الحضارة المحتضرة والمجتمع المحتضر روحاً جديدة من الحياة ، و توهلهما من جديد للبقاء فى العالم و تبرر وجودهما و استمرارهما ، ولا شك أن جامعات البلاد و مدارسها العلمية ومراكزها الفكرية ، و المؤلفين و أصحاب الأقلام و قادة الفكر ، يستطيعون أن يقوموا فى هذا المجال بدور كبير ، واعتقد أن مشروع « المركز الاسلامى » الذى يدرس فى هذه الجامعة والذى دعى له هذا المجلس ، يقوم فى موضعه المناسب و موعده المناسب ، وسيكون حلقة فى هذه السلسلة ومعلمة فى الطريق ، هذا هو الأمل الذى ساقنى — رغم ضعفى و زحمة أشغالى — إلى هذه الجامعة ، و دفعتنى للحضور فى هذه المناسبة الكريمة .

و أخيراً أشكركم على هذا التكريم و هذه الثقة التى وضعتموها فى ، و أدعو الله تعالى أن يوفق هذا المركز لأداء مهمته على أحسن ما يرام ، و أن يحقق تلك الآمال التى علقها به القائمون عليه و المرجون به و المقدرون له .

و الله ولى التوفيق .

(١) « روائع اقبال » لصاحب المقال .

نبوة محمد ﷺ و دلائلها من القرآن

الدكتور / الهامى نفرة
أستاذ محاضر فى القرآن و السنة
بكلية الشريعة وأصول الدين / تونس

دراسة السيرة :

تقوم المنهجية العلمية فى دراسة السيرة النبوية على عملية الانتقاء و التصفية ، والرجوع إلى مصادرها الأساسية وبيئتها الواقعية ، لتخليصها مما أقحم فيها من قصص و خوارق و مبالغات لا يؤيدها التاريخ ، ولا يزكيها العقل الصحيح ، و دون أن يكون لذلك أصل فى القرآن أو الحديث ، بل ربما تناقضت معهما ، فقد حت لبعض المستشرقين وغيرهم ممن لا تخلو كتاباتهم من تعصب وتحامل على الاسلام وعلى نبى الاسلام ثلمات و ثغرات ساعدتهم على الطعن ، وعلى أثارة الشكوك فى السيرة ، والاستعانة بالشاذ الغريب ليأخذوا منه ما يبيتون من أفكار مسبقة ، و قد آثاروا الشك حتى فى اسم النبى ﷺ ، و لو تمكنوا لأثاروا الشك حتى فى وجوده ، كما أثاروا حول الوحى الذى جاء به ، فحاولوا أن يضعوا أيدينا على الأشخاص الذين تلقى عنهم العلم من أهل الكتاب ، وإثبات الاقتباسات من اليهودية والمسيحية ، فى حين أن التاريخ لم يترك مكاناً لأصدقاء معلنين للرسول كما يزعمون .

و بعد هؤلاء الحائفين عن المنهج العلمى يؤكده اعتمادهم على كل خبر يظفرون به فى كتب السيرة ، ويلائم رأيهم ليبنوا حكمهم عليه ، و إن كان هذا الخبر ضعيفاً واهياً ، لأنهم أصحاب فكرة يريدون إثباتها بأى طريق ، و لو أدى ذلك إلى هدم أخبار صحيحة ، و اختراع أخبار تقوم مقامها .

ومن المستشرقين المنصفين من كشفوا النقاب عن الأخطاء المنهجية التى وقع فيها

رفاقهم ، و هم يدرسون السيرة ، و الدوافع التى تكمن وراء مواقفهم .

و لقد رأى (دينيه) أنه من المتعذر ، إن لم يكن من المستحيل أن يتجرد المستشرقون عن عواطفهم و بيئتهم ونزعاتهم المختلفة . . . ورغم مزاعمهم من اتباعهم لأساليب النقد الصحيح ، وقوانين البحث العلمى الجاد ، فانا نلمس من خلال كتاباتهم محمداً يتحدث بلهجة ألمانية إذا كان المؤلف ألمانياً ، و بلهجة إيطالية إذا كان الكاتب إيطالياً ، و هكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب ، و ذلك أن هؤلاء يقدمون لنا صورة خيالية ، أو يصورون لنا أشخاصاً من أبناء قومهم ، فليس عليهم إلا أن يحسبوا حساب اختلاف الأزمنة و قد ضرب المستشرق الانجليزى (مونتكمرى وات) مثلا بالمستشرق الفرنسى (لامنس) على الانحرافات المنهجية التى يمارسها كثير من المستشرقين ، و بخاصة تلك التى تقوم على جعل الوقائع التاريخية مجالا انتقائياً للتدليل على فكرة مسبقة ، أو اتجاه حدد من قبل فقال :

(إن لامنس - للأسف - يتجاوز الأدلة كثيراً ، إذ أن طريقته العابثة فى المعالجة ليست طريقة علمية ، فهو يرفض هذا الرأى ويقبل الآخر حسب أفكاره الخاصة و معتقداته ، دون أن يعبأ بالموضوعية) (١) .

ولا شئ يبعد عن المنهجية العلمية كالانتقاء الكيفى أو التفسير الاختيارى للنصوص التاريخية أو النفى الاعتباطى لبعض المسلمات و الحقائق .

خطر المغالاة فى الانكار و الاثبات :

و من المستشرقين من اعتمد الجانب السلبى فى اعتبار القرآن مصدراً أساسياً من مصادر السيرة مثل (سبرنجر) ، و ذلك بنفى الكثير من أحداث السيرة ،

(١) منتغمرى وات — محمد فى مكة (ت) شعبان بركات - ٢٤٣ (المكتبة العصرية بيروت) .

مادامت لم ترد فى القرآن الكريم، وكأن القرآن كتاب تاريخى بتفاصيل حياة محمد ﷺ ! وهذا مكنهم من عملية انتقاء مغرضة ذات طابع سلبى معاكس وهى رفض كل رواية لا ترد مؤيداتها فى القرآن إذا كان فى هذه الرواية تمجيد للنبى ﷺ ، أو إذا كان فى نفيها تأكيد لاحدى وجهات النظر الاستشراقية (١) .

فسبرنجر يرى أن اسم النبى ورد فى أربع سور من القرآن ، وهى آل عمران، و الأحزاب و محمد ، و الفتح و كلها سور مدنية ، و من ثم فان لفظة (محمد لم تكن علماً للرسول قبل الهجرة ، و إنما اتخذه بتأثير قراءته للانجيل ، و اتصاله بالنصارى (٢) .

و كما وقع بعض المستشرقين فى أخطاء و انحرافات عند بحثهم للسيرة النبوية ، بعضها عن عمد و بعضها الآخر عن خطاء فقد وقع بعض المسلمين فى أخطاء من نوع آخر ، و يتمثل معظمها فى المغالاة عند بعض الوقائع أو تفسير بعض الشمائل النبوية بالعواطف و الأهواء ، كما نجد ذلك فى كثير من القصص المولدية التى كادت تجعل للنبى ﷺ شخصية لاهوتية ، دون أن تكتفى بابراز ما يتحلى به من كمال الخلق، و صفاء النفس ، و قوة الايمان ، و رشد القيادة ، و حصافة الرأى . . . .

وليس معنى ذلك أنا ندعو إلى قطع السيرة النبوية عن أية صلة بعالم الغيب ، كما يجب أنصار التفسير المادى للتاريخ ، أن ينفوا المعجزات ، و ينكروا اتصال النبى وسائر الأنبياء عن طريق الوحى بعالم الغيب فى السماء ، ويسخرون من الاعتقاد مثلا بأن الله نصر القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة فى غزوة بدر بمدد من الملائكة مسومين، أو أنه سبحانه طمس على أعين المشركين الذين حاصروا بيته ليقتلوه بضربة

(١) - عماد الدين خليل - دراسة فى السيرة - ١٨ (ط بيروت ١٩٧٧م) .

(٢) جواد على - تاريخ العرب فى الاسلام والسيرة النبوية ١ / ٧٨ (بغداد ١٩٦١)

رجل واحد ، حتى يتفرق دمه فى القبائل ، وأحاطه بعنايته و عصمه من مؤامرات إغتياله استجابة لوعده .

ثم إن صدق الدليل لا يتوقف دائماً على تصديق العقل به ، و لا ينحصر فيما يثبته الحس رغم أنه لا قطيعة بين الغيب و الشهادة .

على أن هؤلاء مندوحة عن عالم الغيب بعالم الشهادة فى التصديق ، فقد كان محمد ﷺ المثل الكامل للانسان السوى ، اجتمع فيه ما تفرق فى العظماء و الأنبياء من خصال الشهامة و الرجولة و خصال المروءة و البطولة .

و الباحث النزيه لا تختلط عليه الأمور ، فيفقد التمييز بين ما يصل إليه النبى على ضوء العلم الربانى وهو الوحى وبين ما يصل إليه من حدود قدرته البشرية على ضوء خبرته و تجربته الشخصية .

و المؤمن برسالات السماء لا يزعزع يقينه فى صدق نبوته ﷺ أن يراه فى حادثة ما يقف حائراً أمام ما يصعب على الذكاء الانسانى اختراق حجبه ، فيضع علامة استفهام كغيره من الناس بكل أمانة و تواضع ! .

كما أن التمييز بين المعجزة والأسطورة هو الحد الفاصل بين الايمان والكفر ، بين التفسير الدينى الذى له أصوله وقواعده ، وبين التفسير الشخصى الذى لا يخلو من شطحات الخيال ، وتخبطات الأهواء التى تكمن وراء الآراء ، ومن جهل واضح للعوامل الجوهرية فى معرفة الحقيقة كالزمن و البيئة و المطامح و الميول و النزعات و نحو ذلك مما لا يدخل تحت مقاييس العقول ، و لكنه شديد التأثير فى الأفراد و الجماعات .

يقول بروكلمان معلقاً على حادثة الاسراء و المعراج :

« فى هذه الأثناء كان مسلمو مكة على ما تقول الروايات ، يعانون أزمة

جديدة ، ذلك أن حديث محمد عن إسرائه العجيب برفقة جبريل إلى بيت المقدس و من ثم إلى السماء ، كان قد أوقع موجة من الشك فى نفوس بعض المؤمنين ، لكن أبابكر ضرب بإيمانه الراسخ مثلا طيباً لهؤلاء المتشككين ، فزايلتهم الريب و الظنون ، و من الجائز أن تكون هذه الرحلة السماوية التى كثيراً ما أشير إليها فى الأساطير الغربية التى خلفتها لنا الكتب الاسلامية أقدم من ذلك عهداً ، ولعلها ترجع إلى الأيام الأولى للبعثة النبوية و أمثال هذه الرؤى فى أثناء تهجد العراف معروفة ثابتة لدى بعض الشعوب البدائية (١) .

و القضية الأساسية التى تتشعب منها الطرق ، و تختلف الاتجاهات إنما هى فى البحث عن المصدر الحقيقى لتعاليم الرسول أى : منبع هذا الوحى الذى ينزل عليه ، و مدى استجابته له ، و تأثيره عليه فى حياته الخاصة و العامة .

فقد كان سلوكه ﷺ تطبيقاً لأخلاق القرآن بالمثل ، و تعليماً لآدابه بالعمل ، و كانت أقواله سناً تتبع ، و أعماله قدوة تحتذى ، و أحكامه أقضية تنفذ ، لأنه صنع المعجزات ، و عمل ما يعجز عنه سائر الناس .

فقد ألف بين قبائل متعادية ، كانت سطوة اليد فيها تسرف على الأمن والعدل ، و سلطان المال يبغى على الحق ، وصولة النسب تستعبد الرقاب ، و عصبية الدم تطغى على كل شئ ، فجمعهم على الأخوة فى الله ، وجعل منهم أمة متجانسة الطباع متماسكة الأجزاء ، متساندة القوى ، و أقام لهم من كتاب الله دستوراً ، و من سنته منهاجاً .

(١) بروكلمان — تاريخ الشعوب الاسلامية — ٤٤ (ت) فارس و البعلبكى (ط بيروت ١٩٦٨م) .

الوحى و البعثة و الدعوة :

و قد بعثه الله على فترة من الرسل ، انقطع فيها صوت الوحى ، و خبا نور العقل ، وأطبق الظلام ، و فشا الضلال ، وجرت قافلة الحياة جائرة السبيل ، حائرة الدليل ، و مادية اليهود تستغرق شهوات الحس و نزوات النفس ، و وثنية الجاهلية توبق الروح .

والرومان فى الغرب يسومون الناس خسفاً ، ويحسبون أنهم حكام الأرض ، و من سواهم عبيد ، و الفرس فى الشرق أضناهم الضلال ، و أتعبهم ما عانوا من رمزية (زرادشت) الذى مهد للمجوسية ، و عدمية (مانى) الذى حرم الزواج استعجالا للفناء ، و وجودية (مزدك) الذى جعل الحياة شركة فى الأموال و النساء ، حتى أذن الله لشمس الاسلام أن تشرق ببعثة من اصطفاه الله للرسالة الخاتمة (١) .

و نزل ﷺ من جبل النور الذى مكث فيه ليالى يتحنث بعد أن تنزل الوحى عليه ، و نور الله يسعى بين يديه ، و صوت الروح الأمين يتردد فى أذنيه :

(يا محمد — أنت رسول الله و أنا جبريل !) .

و لم يكن قبل ذلك يعرف ما ينتظره ، فكان لمفاجأة اتصاله الأول بالوحى هزة فى نفسه ، تلاها مزيج من مشاعر الخوف و الحيرة و الشك ثم انقطع عنه الوحى فترة ، ليعظم استعداده للتلقى ، ويشتد شوقه و حنينه إلى استجلاء هذا السر المكنون فى عالم الغيب .

و بينما هو يمشى ذات يوم ، سمع صوتاً من السماء ، فرفع بصره ، فاذا الملك الذى جاءه بالغار ، فارتاع لرؤيته ، و رجع إلى أهله ، و تزمل و تدثر ،

(١) أحمد حسن الزيات ـ وحى الرسالة ـ ٤ / ٧٩ (ط بيروت ١٩٧٣م) .

و هو يرتجف خوفاً و إشفاقاً ، فأنزل الله عليه :

(يا أيها المدثر قم فأنذر ، و ربك فكبر و ثيابك فطهر) المدثر ٢ ـ ٤) فى تبليغ ما أمر أن يصدع به من الدعوة إلى الله ، بصبر المجاهد ، و يقين المؤمن ، و عزم الرسول ﷺ ، لا تسنده سلطة ، و لا يؤازره جيش ، و لا يمهد له مال .

و ليس بالأمر الهين أن يتصدى لمقاومة قبائل شتى ، فاضت فى نفوس أهلها الحياة ، و زخرت فى صدورهم القوة ، فصار نشاطهم نزاعاً لا يفتر ، و صراعاً لا يهدأ ، وهم يرون فى تقبل الدعوة خضوعاً لقانون ، وخروجاً على عرف وامتهاناً لقيم ، و إنقلاباً على مواضعات و ممارسات ، فبغتوا (١) (و عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، و قال الكافرون هذا ساحر كذاب) أجعل الآلهة إلهاً واحداً ، إن هذا لشئ عجاب (سورة ص - ٣ ـ ٤) ، فيا لعنف الصدام ، ويا لهول ما سيلقى من صدود ومكاره وخطوب ! سوف يكابد أذى قريش ، و كيد اليهود ، و حقد المنافقين ، فيقابل الأذى بالصبر ، و السفح بالحلم ، و الفظاظة بالرقة ، و يقارع الجدال بالاقناع ، والعنف بالجهاد ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ، و تكون كلمة الله هى العليا .

و من لم يصطفه ربه لتحمل أعباء الرسالة العامة ، لا يستطيع أن يصمد و يثبت فى ميدان الصراع بين الحق و الباطل ، و الهدى و الضلال ، حتى تظهر الوحدانية على الوثنية ، و الانسانية على العصبية ، و الايثار على الأنانية ، و حتى يعرف الانسان قدر الانسان و تدرك النفوس المتألمة فضل الاحسان !

(١) المصدر السابق — ٧٦ .

من يقدر غير نبى الرحمة أن يحول الجفاة القساة المشتتين على رمال القفر ، باشراق روحه ، و رقة طبعه ، و رحمة قلبه ، إلى أمة واحدة ، ذات حضارة من أعظم الحضارات سعة وشمولا ، أقيمت فى ظلها خلافة يمتد نفوذها شرقاً وغرباً ؟ .

من يقدر على ذلك كله غير رسول هو أفضل أولى العزم من الرسل ، وأفضل الخليلين اختصه الله بالمقام المحمود ، وأرسله رحمة للذين استضعفوا فى الأرض لقلة المال كالفقراء ، أو لضعف النصير كالأرقاء ، أو لطبيعة الخلقة كالنساء ، فكفل الرزق للعدم بنظام التكافل والعدالة ، وضمن العز للذليل بشرعية العدل و الكرامة ، و منح المرأة حقوقها الانسانية السليبة بقانون الشريعة

و المستضعفون الذين رحمهم الله برسالة محمد ﷺ ، لم يكونوا من حسب ممتاز ، ولا من وطن محفوظ ، و إنما كانوا أشتاتاً من أنحاء الأرض ، فيهم العربى والفارسى والرومى والهندى والحبشى والصينى والبربرى ، جمعتهم على الاسلام عقيدة التوحيد ، و لم يفضل أحدهم على الآخر إلا بالتقوى و العمل الصالح .

« يتبع »

الحج وقفة و طواف

سماحة الأستاذ الدكتور عبد الله عبد القادر بالفقيه الحسيني
رئيس المجلس الأعلى لشؤون الفتوى و الدعوة بإندونيسيا

لقد علم الناس أن الحج وقفة و طواف . وقفة هى وقفة الضراعة الذليلة تجاه الصمدية العزيزة ، و طواف ، هو طواف الحب الهائم ببيت المحبوب الدائم ، وقفة وطواف ، وقفة الجدية القوية المضحية فى عرفات ، وطواف العهد والميثاق ببيت الله الحرام . وقفة وطواف هما نهاية المراحل للعبد المؤمن فى سلوكه إلى مولاه المهيمن ، هما حقيقة الركن الخامس و الأخير من أركان الاسلام ، و هو الحج « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى » (لقمان ٢٢) .

و المسلمون منذ أن شرح الله صدورهم ، و رجعوا بألسنتهم عقيدة التوحيد و الايمان يحجون الله بما رسم لهم من طرق التقرب و التطهير ، فهم يحجون إليه بالوقوف بين يديه و استقبال بيته الكريم بالتكبير و التعظيم بالمناجاة و الدعاء ، بالتوبة و الاستغفار ، فى كل يوم و ليلة خمس مرات ، فى فترات متقاربة ، يخلعون فيها أنفسهم من قيود المادة المظلمة إلى سماحة الروحية المنيرة ، ثم يعودون يعملون فى الحياة بما حصلوا عليه من نور و إشراق ، و هم يحجون إليه شهراً كاملا فى كل عام بالارتحال عن عاداتهم فى مشتهيات البطن و النفس ، تمريناً على الصبر ، و تحللا من حكم العادة ، و تجديداً للمراقبة إلى حضرة الله ، و إلى المستوى

الأعلى للانسانية فتصفو نفوسهم ، وتسمو أرواحهم ، و يلطف حسهم ، ويرهف وجدانهم و يكونون منبع خير فياض على أنفسهم و على الناس . وهم يحجون إليه بالخروج عن جزء من أموالهم إعانة للفقراء والمساكين ، و قياماً بحقه العام امتثالا لأمره ، و تطهيراً النفس من أدران الشح الذى يقطع الصلات الروحية و العطف بين الانسان و أخيه الانسان .

هم فى كل ذلك يحجون إلى الله ، و هم مقيمون فى أوطانهم يعملون ، ومع أهليهم و إخوانهم يتعاملون يتجهون إليه بقلوبهم و نفوسهم و أموالهم إزكاء لروح الاتصال و إعداداً لشد الرحال ، حتى إذا ما غاضت شجرة التوحيد فى القلوب ثم نمت ، و طابت ثمارها بماء المناجاة الذى ينبع من معين الصلاة الصافى ، ثم غذيت تربتها بسماد الكرم الذى تصنعه الزكاة ، ثم شذبت ونقيت من أشواك الشهوة والجزع بالصوم ، وتم ذلك على الوجه الأكمل ، و كمل الشوق فيهم إلى الحج الأكبر ارتحلوا بأبدانهم و أموالهم من أوطانهم و أهليهم إلى الله رب الملك و النعمة ، مهرولين إلى الحج الأكبر ، إلى حيث الوقفة و الطواف « إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات و الأرض حنيفاً وما أنا من المشركين « إن صلاتى و نسكى و محياى و مماتى لله رب العالمين » (الأنعام ١٦٢) .

و سيذكرون لأول ما تقع أبصارهم على مكة أنها البلد الأمين الذى خلع الله عليه الأمن استجابة لدعوة أبيهم إبراهيم ، ثم أعلى شأنه ، و أقسم به ضمن مهبط وحيه لعباده « و التين و الزيتون و هذا البلد الأمين » .

و سيذكرون أنها أم القرى التى انبثق من جبالها وشعابها نور الايمان والهدى فبدد ظلمة الشرك و الضلال ، و عرفت به الانسانية حقها . و صارت به للانسانية خير مرشد و أعظم منقذ « و كذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى

و من حولها » الشورى ٧) .

و سيذكرون إنها بلد الوعيل الأول الذين آمنوا بالله وباعوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله ، و أنها البلد الذى احتفظ بوفائه لأبنائه على رغم ما انتابهم فيه من أحداث ، و ظل متحفظاً فى باطنه — بالوفاء ، حتى إذا ما يسر لهم طريق العودة إليه ، فتح لهم أبوابه فدخلوه فاتحين منتصرين « و الذين هاجروا فى الله من بعد ماظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لوكانوا يعلمون ، الذين صبروا و على ربهم يتوكلون » (النحل ٤١ ، ٤٢) .

تحضرهم هذه الذكريات وهم على أبواب مكة فيحسون صلتهم الروحية الوثيقة بالمكان و الآثار ، و أسلافهم الأمجاد ، و تأخذهم روعة الذكريات إلى عز الماضى فيتجردون من صنعة الدنيا و ألوانها و مظاهر طبقاتها وتفاوتها ، ويعودون بأنفسهم إلى وحدة المظهر يحاكون بها وحدة العقيدة و الايمان ، ولا يكون أمام أبصارهم إلا الذى أضاء بفضله وحاب بصائرهم ، فتملكهم عظمته و تشعلهم رحمته و يكون شعارهم الدائم [وكلمتهم الصاعدة هذا النشيد الالهى الذى يعبرون به وضعهم أمام الله ، و عن شعورهم بعظمته و نعمته و ملكه و سلطانه ، يعبرون به عن قيامهم الدائم فى خدمته و تنفيذهم أمره و شريعته . ؟

«لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك» .

و لا يزالون يمدحون بنغم هذا النشيد تكتمل عيونهم بأمجد البيت الحرام ، وعندئذ يذكرون قول الله « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً و هدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا »(آل عمران ١٦) و قوله « و إذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت و إسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم (البقرة ١٢٧) و قوله « و إذ بوأنا لابراهيم مكان البيت

الا تشرك بى شيئاً وطهر بيتى للطائفين و القائمين و الركع السجود »(الحج ٢٦)

يذكرون ذلك فيدركون أن عبوديتهم لله ، من عبودية آبائهم الأولين و أنها عبودية واحدة ، أمام معبودية واحدة ، ترتفع من الزمان و المكان و الأشخاص ، ويتصل حاضرها ومستقبلها بماضيها و تصبغ كتلتها الموحدة ، بصبغة الوحدة فيتوحد العابدون فى عبادتهم وخضوعهم ، كما توحد المعبود فى معبوديته وسلطانه ثم يخضع العابد الموحد أمام جلال المعبود الواحد ، ويتلاشى العجز والفقر والحاجة فى قوة الغنى و الرحمة الواسعة ، ثم ليدفعون إلى الطواف حول البيت و السعى بين الأعلام و عندئذ يذكرون قول الله تعالى « وليطوفوا بالبيت العتيق » البقرة (١٥١) وقوله تعالى « إن الصفا و المروة من شعائر الله » البقرة (١٥٨) .

و إذا ما اطمأنوا إلى حسن القدوم ، وبدت لهم آية القبول ، خلعوا أنفسهم إلى الطبيعة البريئة من صفة الانسان و زخرف الحياة ، إلى الجبال و أحجارها ، و الوديان و سهولها ، و الرمال وحصياتها ، إلى السماء و صفائها ، و هناك ، وفى عرفات ترتفع الحجب ، فيكمل الاشراق و يشتد الاتصال ، و تتوثق المعرفة ، وهناك تقف الأشباح المتضامنة بقلوب مملوءة بالخشية ، ووجوه شاخصة بالضراعة و أيد مرفوعة بالرجاء ، و ألسنة مشغولة بالدعاء ، و آمال صادقة فى أرحم الراحمين .

وهناك تشرق الذكرى عليهم بأنواعها وقوتها الوهاجة ، فيستمعون بآذان القلوب إلى صوت محمد رسول الله ﷺ ، يخطب آباءهم وهم فى أصلابهم ، يحمل لهم رسالته و يحثهم على صدق الايمان و كمال المعرفة بحقوق الله ثم يستشهدهم ، فيشهدون أنه بلغ و أدى و نصح ، فيرفع أصبعه السبابة إلى السماء ثم يشير بها إليهم و هو يقول « اللهم أشهد ، اللهم أشهد » .

ثم يتجهون جميعاً إلى ميدان العرض الثانى ذاكرين قول الله تعالى « فاذا أفضتم

من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم » (البقرة ١٩٨) .

فاذا ما ازدلفوا إلى الله بذكره فى هذا الميدان ، توجهوا إلى ميدان العرض الثالث ، ميدان منى ، يعلنون برمز عمل تجمعهم على نبذ عوامل الشعر و نزعات النفس و الهوى كما يعلنون استعدادهم لوسيلة الجهاد الصادق و الرمى الذى لايخطىء .

و سيذكرون و هم فى ميدان الرمى تلكم الصفحة البيضاء صفحة التبليغ الالهى الذى قام به أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه نائباً عن الرسول ﷺ و أبى بكر على رأس حجيج المسلمين لأول مرة بعد الفتح الأكبر ، ولكن التبليغ الذى أعلنت به كلمة الاسلام النهائية فى علاقة المشركين بالبلد الحرام و سجلته سورة التوبة وثيقة يجب على المسلمين فى جميع العصور والأمكنة تعهدها و القيام بأحكامها مهما اختلفت بهم الأجناس والأقطار و اللغات ، و إذا ما تمت لهم هذه الذكرى و تذكروا قول الله تعالى « و البدن جعلناها لكم من شعائر الله » (الحج ٣٦) فذبحوا و أكلوا وأطعموا عادوا إلى مكة ، مستأذنين فى الانصراف إلى بلادهم بعد أن قضوا مناسكهم و استضاؤا بأمثل الذكريات التى تثير فى نفوسهم من وسائل المجد ما يفتح أمامهم سبيل الحياة العزيزة التى كلفها الله لعباده المؤمنين .

أيها المسلمون !

هذا هو الحج ، و هذه هى وقفة المسلمين بعرفات ، و ذلك هو طوافهم بيت الله الحرام ، فعلى من اعتزم من إخواننا المسلمين أداء فريضة الحج أن يتفهم أسرار المناسك و أن يعمل فى رحله و ترحاله على منوالها ، فينعم بآثارها الطيبة ، و يعود بذكراها الحسنة منشرح الصدر ، هادىء البال ، قرير العين مطمئن النفس ، صافى القلب ، حائزاً لرضا الله و ثوابه .

الفقه الإسلامي

★ نظرية تاريخية شاملة فى الاجتهاد ▦

★★★★★★★★★★★★★★★

فضيلة الأستاذ محمد الرابع الحسنى الندوى
عميد كلية اللغة العربية جامعة ندوة العلماء

لقد كان عهد الرسول ﷺ عهد التشريع الاسلامى لأن الوحى الالهى كان ينزل من السماء فيقرر الأحكام فى القضايا الدينية للحياة و كان الرسول ﷺ يبينها للناس عندما يلزم ، و قد كان يسكت على ما يراه من عمل الناس فيتقرر الحكم بسكوته ، و قد يرى برأى أو يعمل عملا برأيه الخاص فيصبح ذلك بمكان حكم الله تعالى ما دام لا ينزل الوحى فى تغييره أو تصحيحه ، و بذلك كانت الأحكام الشرعية تتقرر فى عهد الرسول ﷺ فكلما حدثت حادثة جديدة لم يعرف المسلمون فيها حكم الله كانوا يسألون رسول الله ﷺ عنها ، فيفتيهم فيها إما بالوحى الذى ينزل عليه فى ذلك و إما بالفهم النبوى الشريف المؤيد من الله تعالى .

أما فى حالة كون الصحابى بعيداً عنه ﷺ فى رحلة أو فى مهمة وظهرت له قضية لم يعرف الحكم فيها يستخدم فيها تفكيره ويجتهد ، وذلك بما أوصى به الرسول ﷺ عند ما ابتعث معاذ بن جبل إلى اليمن فقال له : بم تقضى ؟ ، قال بما فى كتاب الله قال : فان لم تجد فى كتاب الله ؟ قال : أقضى بما قضى به رسول الله ، قال فان لم تجد فيما قضى به رسول الله ؟ قال : أجتهد برأيى ، قال : الحمد لله الذى وفق رسول رسوله (١) .

و لما توفى رسول الله ﷺ انقطع الوحى ، فلم يبق فى تحديد حكم شرعى

▦ من البحوث المقدمة إلى الملتقى السابع عشر للفكر الاسلامى ، قسنطينة ، الجزائر .

فى قضية جديدة لم يرد فيها حكم فى كتاب الله و لا فى سنة رسوله إلا بالاجتهاد بالرأى ، و ذلك بالتماس أشباهه فى الكتاب و سنة رسول الله ﷺ ، و استخدام البصيرة الدينية اتباعاً لأمر رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل رضى الله عنه .

و من هنا نشأ الاجتهاد فى الشريعة الاسلامية و استمر العمل به فى صورة بسيطة موافقاً لحياة المسلمين البسيطة ، فكان الصحابة رضى الله عنهم بعد وفاة الرسول ﷺ إذا وردت عليهم أقضية لا يرون فيها نصاً من الكتاب أو السنة يلجأون إلى الاجتهاد ، و كانوا يعبرون عنه بالرأى أيضا ، و قد يتفق رأيهم على اجتهاد فى قضية فيصبح ذلك إجماعاً و يصبح شبيهاً بالحكم الحاصل من الكتاب و السنة ، فكذلك كان يفعل أبو بكر رضى الله عنه إذا لم يجد فى الكتاب نصاً و لا عند الناس سنة ، و كذلك كان عمر رضى الله عنه يفعل ، و لما ولى شريحاً قضاء الكوفة قال له : « أنظر ما يتبين لك فى كتاب الله فلا تسأل عنه أحداً و ما لم يتبين لك فاتبع فيه سنة رسول الله ﷺ ، وما لم يتبين لك فى السنة فاجتهد فيه برأيك و كتب إلى أبى موسى الأشعرى : الفهم ، الفهم فيما تلجلج فى صدرك ما ليس فى كتاب ولا سنة ، أعرف الأشياء و الأمثال ، وقس الأمور عند ذلك (٢) .

و كان الاجتهاد فى عهد الصحابة تابعاً لفهمهم الدينى و ذوقهم الشرعى الذى اكتسبوه من صحبتهم لرسول الله ﷺ مدة عشرين عاماً ، و كان الاجتهاد مصوناً من الهوى و الأغراض الدنيوية بسبب ما كان فى الصحابة من الصلابة و الأمانة الدينية ، و لما انقرض عصرهم لم يكن يوثق بكل من جاء بعدهم ، و صار الاجتهاد معرضاً لتأثير هوى النفوس و عقول ضعفاء العلم و البصيرة الدينية لانقراض جيل الصحابة ، فعكف أهل العلم من أصحاب الأمانة و البصيرة الدينية على تهذيب فن الاجتهاد وتدوينه و جعلوه فناً من الفنون يرجعون فيه إلى قواعد و مبادىء عندما

يرون حاجة إلى البحث والتفكير فى أمر ظنى يحتمل الشك وتكوين رأى فيه (٣) .

على كل فقد وضع أئمة الدين أسس الاجتهاد و دونوه كفن واضح المسالم يستطيع أن يستخدمه من يناط إليه معرفة حكم الله فى أمور الحياة الدينية ، و قد كان ذلك فى المائة الثانية من الهجرة .

و امتد دور الاجتهاد الذى كان الصحابة رضى الله عنهم بدأوه إلى حدود الثلاثمائة من الهجرة ، من عهد الخلفاء الراشدين إلى عهد الدولة الأموية وإلى الشطر الأول من الدولة العباسية وصدر الدولة الأموية بالأندلس ، و كان فيه اجتهاد فقهاء الصحابة رضوان الله عليهم ، و اجتهاد الفقهاء التابعين كبارهم و صغارهم ، و اجتهاد فقهاء الأنصار الذين استمرت مذاهبهم ، و كان لهم أصحابهم و أتباعهم ، ثم جاء عصر التقليد ، و صار باب الاجتهاد مغلقاً منذ ذلك الوقت (٤) .

ومعنى الاجتهاد فى المصطلح الدينى - فعلى ما يفهم من كلام العلماء - استفراغ الجهد فى إدراك الأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها التفصيلية الراجعة كلياتها إلى أربعة أقسام : الكتاب ، و السنة ، و الاجماع ، و القياس ، و هو الاجتهاد بالرأى ، أما صاحب الاجتهاد الذى هو كفء لعمل الاجتهاد فهو - فى نظرهم - الذى جمع خمسة أنواع من العلم ، علم كتاب الله عز و جل ، و علم سنة رسول الله ﷺ ، و أقاويل علماء السلف من إجماعهم ، و اختلافهم ، و علم اللغة ، و القياس (٥) و هو طريق استنباط الحكم عن الكتاب و السنة و إذا لم يجده صريحاً فى نص كتاب أو سنة ففى إجماع ، و الاجتهاد رأى غير مجمع عليه ، فاذا أجمع عليه فهو الاجماع ، و لذلك كان الاجماع أقوى من الاجتهاد و كان الاجتهاد بعد الاجماع فى المنزلة ، ويعرف بعض علماء الأصول الاجتهاد فى اصطلاحهم بأنه استفراغ الجهد ، و بذل غاية الوسع ، إما فى استنباط الأحكام و إما فى تطبيقها .

فهو إذن شعبتان : استنباط الأحكام و بيانها ، و تطبيق ما استنبط و تخريج الأحكام على مقتضى الزمان الشعبة الأولى هى الاجتهاد الكامل ، و قد قال بعض العلماء إن ذلك النوع من الاجتها قد ينقطع فى زمن من الأزمان وهو قول الجمهور، و قال الحنابلة إن هذا النوع لا يصح أن يخلو عصر منه .

و الشعبة الثانية من الاجتهاد و أصحابه فاتفق العلماء على أنه لا يصح أن يخلو منه عصر من العصور ، و هؤلاء هم علماء التخريج و تطبيق قواعد الأحكام على الأفعال الجزئية ، وبهذا التطبيق تتبين أحكام المسائل التى لا يعرف للسابقين أصحاب الاجتهاد الكامل رأى فيها (٦) .

لقد كان الفقه الاسلامى و مسائله التفصيلية بسيطة و غير مدونة فى العهد الاسلامى الأول ، وهو زمان رسول الله ﷺ و زمان صحابته حتى جاء عهد التابعين ، و تابعيهم ، فوضعت الأركان و الشروط والآداب لكل عبادة ، و تفاصيل الأحكام بدلائلها ، وفرض العلماء صوراً من أنفسهم ، قرروا لها الأحكام بالاجتهاد (٧) .

كان من بساطة الشريعة الاسلامية فى عهدها الأول أن رسول الله ﷺ كان يتوضأ فيرى أصحابه وضوءه فيأخذون به من غير أن يبين أن هذا ركن و ذاك أدب ، و كان يصلى فيرون صلاته ، فيصلون كما رأوه يصلى ، و هذا كان غالب حاله ﷺ ، ولم يبين أن فروض الوضوء ستة ، أو أربعة ، ولم يفرض أنه يحتمل أن يتوضأ إنسان بغير موالاة ، حتى يحكم عليه بالصحة أو الفساد إلا ما شاء الله ، و قلما كانوا يسألونه عن هذه الأشياء .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ما رأيت قوماً كانوا خيراً من أصحاب رسول الله ﷺ ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض ، كلهن فى القرآن منهن : (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) (و يسألونك عن المحيض) قال :

« ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم » (٨) .

قول ابن عباس رضى الله عنهما كما يظهر ينطبق على ما فى القرآن وحده ، أما فى السنة فهناك جملة كبيرة من الأسئلة ، وكان الناس يستفتون رسول الله ﷺ فى الوقائع فيفتيهم و ترفع إليه القضايا فيقضى فيها ، و يرى الناس يفعلون معروفاً فيمدحه أو منكراً فينكر عليه ، و لم يكن كل ذلك فى الاجتماعات ، فما كان يطلع على كل حكم أو رأى أو أمر كل واحد من الصحابة ، فالذى يكون حاضراً يرى و يعلم (٩) .

ولذلك كان الشيخان أبو بكر و عمر إذا لم يكن لهما علم فى المسألة يسألان الناس عن حديث رسول الله ﷺ ، فاذا وجداه و تحقق لديهما حكما بهما ، وإذا لم يجدا حديثاً أو حكماً فى المسألة المطلوبة اجتهدا بفهمهما الذى تربيا عليه فى صحبة رسول الله ﷺ ، و قد كان الصحابة أنفسهم يختلفون فى تقرير حكم فى المسألة على حسب ما رأى و علم فى صحبة رسول الله ﷺ فتقع مناظرة بينهم و يتفقون على الوجه الأوفق .

ثم انتشر الصحابة إلى البلدان المختلفة ، فكان الناس يسألون الصحابى الذى يجدونه فى جهته و يعتمدون على فتاواه ، و بذلك وقع اختلاف فى أحكام على حسب فتوى الصحابى التى أفتى بها فى جهته .

و بالجملة فاختلفت مذاهب أصحاب النبى ﷺ و أخذ عنهم التابعون كل واحد ما تيسر له فحفظ ما سمع من حديث رسول الله ﷺ ، و مذاهب الصحابة وعقلها وجمع المختلف على ما تيسر له و رجح بعض الأقوال على بعض و اضمحل فى نظرهم بعض الأقوال وإن كان مأثوراً عن كبار الصحابة، كالمذهب المأثور عن عمر و بن مسعود فى تيمم الجنب ، اضمحل عندهم لما استفاض من الأحاديث عن عمار وعمران

ابن حصين و غيرهما ، فعند ذلك صار لكل عالم من علماء التابعين مذهب حياله ، و انتصب فى كل بلد إمام مثل : سعيد بن المسيب ، و سالم بن عبد الله بن عمر فى المدينة ، و بعدهما الزهرى و القاضى يحيى بن سعيد ، و ربيعة بن عبد الرحمن ، و عطاء بن رباح فى مكة ، و إبراهيم النخعى والشعبى بالكوفة ، و الحسن البصرى بالبصرة ، و طاؤس بن كيسان باليمن ، و مكحول بالشام ، و كان سعيد و أصحابه يذهبون إلى أن أهل الحرمين أثبت الناس فى الفقه وأصل مذهبهم فتاوى عمر وعثمان و قضايا هما و فتاوى عبد الله بن عمر و عائشة و ابن عباس ، و قضايا قضاة المدينة (١٠) .

و كان إبراهيم و أصحابه يرون أن عبد الله بن مسعود و أصحابه أثبت الناس فى الفقه وأصل مذهب هؤلاء فتاوى عبد الله بن مسعود وقضايا على رضى الله عنه و فتاواه و قضايا شريح و غيره من قضاة الكوفة .

وكان سعيد بن المسيب لسان فقهاء المدينة ، وكان أحفظهم لقضايا عمر ولحديث أبى هريرة ، و كان إبراهيم لسان فقهاء الكوفة ، فاذا تكلما بشئ و لم ينسبا إلى أحد فانه فى الأكثر منسوب إلى أحد من السلف صريحاً أو إيماءاً ، و نحو ذلك فاجتمع عليهما فقهاء بلدهما و أخذوا عنهما .

فمذهب عمر وعثمان وعائشة و ابن عمر وابن عباس وزيد بن ثابت وأصحابهم مثل سعيد بن المسيب ، كان أحق بالأخذ عند أهل المدينة ، و قد بنى عليه الامام مالك بن أنس ، و به و بأمثاله قام علم الرواية و الفتوى ، و جمع أصحابه رواياته و مختاراته ولخصوها وحرروها ، و تفرقوا إلى المغرب و نواحى الأرض فنفع الله بهم كثيراً فى خلقه و يدل على ذلك كتابه المؤطا ..

و مذهب عبد الله بن مسعود و أصحابه و قضايا على و شريح و الشعبى و فتاوى إبراهيم كان أحق بالأخذ عند أهل الكوفة من غيره ، و قد بنى عليه الامام أبو حنيفة ، و كان عظيم الشأن فى التخريج على مذهب شيخه إبراهيم دقيق النظر فى وجوه التفريعات .

وكان أشهر أصحابه ذكراً أبو يوسف تولى قضاء القضاة أمام هارون الرشيد فكان سبباً لظهور مذهبه و القضاء به فى أقطار العراق و خراسان و ما وراء النهر ، و كان أحسنهم تصنيفاً و ألزمهم درساً محمد بن الحسن ، و قد تفقه على أبى حنيفة وأبى يوسف ، ثم خرج إلى المدينة فقرأ المؤطا على مالك ، ثم رجع إلى بلده فطبق مذهب أصحابه على الموطأ .

و نشأ الشافعى رضى الله عنه فى أوائل ظهور المذهبين و ترتيب أصولهما وفروعهما فنظر فى صنيع الأوائل فوجد أموراً كبحت عنانه عن الجريان فى طريقهم ، و قد ذكرها فى أوائل كتابه الأم ، فلما رأى الشافعى فى صنيع الأوائل مثل هذه الأمور أخذ الفقه من الرأس ، فأسس الأصول و فرع الفروع و صنف الكتب فأجاد و أفاد (١١) .

و جاء الامام أحمد بن حنبل الشيبانى و تلمذ على الشافعى رضى الله عنهما و سار على مذهبه مع اعتصام بما لديه من نصوص السنة النبوية الصحيحة ، وكان محدثاً من جامعى الحديث الشريف ، فعد نهجه مذهباً فقهياً مستقلا كذلك ، فكان مذهباً رابعاً .

واقتصر أهل السنة فى الاسلام بالاعتماد على هذه المذاهب الأربعة دون غيرها ، اتبعوها اتباعاً كاملا و حصروا جهودهم الفقهية فى إطار الآراء الفقهية لأصحابها بصورة عامة .

و من هنا جاء التقليد ، و كان لا بد منه لكل من لا يبلغ من علمى القرآن و السنة وإجماع الصحابة و أتباعهم ما يؤهله للاجتهاد فى القضايا الشرعية الجديدة.

لقد بحث هؤلاء الأئمة الأربعة فى مختلف المسائل و الوجوه من الشريعة الاسلامية ، و رأوا رأيهم فيما جرى فى عهدهم وفيما تصوروا ظهوره من بعدهم فأغنوا غيرهم فى كثير مما كان قد يتجدد بعدهم ، ولم يتركوا مما يفتقر إلى الاجتهاد إلا قليلا و نادراً .

و قد كان عهد نشوء المذاهب الفقهية و عمل الاجتهاد الواسع الدقيق مسايراً لعهد الحاجة الشديدة الواسعة إليه بسبب حدوث تغييرات مدنية و اجتماعية كثيرة فى الحياة الاجتماعية الاسلامية و آداب الحياة بتأثير قيام الحكم الاسلامى ، وتحول الحياة العربية الضيقة البسيطة إلى حياة عربية واسعة قبلت صوراً صالحة من الحياة الراقية المعاصرة ، فكان لا بد أن يجيب الفقه الاسلامى على أسئلة نشأت من الحياة الجديدة ، و قد سد الفقهاء الأربعة فعلا هذه الحاجة سداً أميناً و دقيقاً بالعمل الاجتهادى العظيم العملاق ، ثم استمرت الحياة على الصورة التابعة من هذا الطراز و لم يكن يحدث تغير كبير فيها ، إلا قضايا جانبية و مسائل فرعية كانت تتجدد بحكم تغير الزمان و الأوضاع ، فتحتاج إلى فتاوى ، و كان العلماء الأكفاء يسدون الحاجة فيها فى إطار الاجتهاد الذى قام به أئمة الفقه الأربعة ونبغ رجال قاربوا فى علمهم الجم و فهمهم الدقيق أئمة الفقه الأولين ، ففهموا بفقههم و اجتهادهم الشريعة الاسلامية و كانوا منتسبين إلى أئمة الفقه الأربعة .

و لما لم يكن العلماء يستبعدون حدوث قضايا فى الحياة الاسلامية تقتضى الاجتهاد ، فبحثوا فى أمر الاجتهاد و وضعوا له شروطاً ومجالات للعمل لئلا يختلط الأمر فى شأنه فيكون الاجتهاد لعبة فى أيدى رجال ليسوا من أهله ، وقرروا حدوداً

لكل ذلك ، وسموا الأسس و المناهج التى يسير عليها الباحث فى الشريعة الاسلامية بأصول الفقه ، و لقد تكلم فيها الامام الشافعى كلاماً شافياً و أفاد و أجاد ، وفتح لمن بعده بابا وأى باب ، وسار أئمة الفقه الأربعة على مناهج وجدوها ملائمة للاجتهاد ، كل على طريقته و اجتهاده ، ومثاله أن الامام أبا حنيفة النعمان جعل من أركان اجتهاده الكتاب أولا ، و السنة ثانياً ، و أقوال الصحابة ثالثاً ، ثم القياس و الاستحسان و العرف .

أما الامام مالك بن أنس فقد اعتمد على عمل أهل المدينة ، ثم على فتوى الصحابى ، ثم القياس و المصالح المرسلة والاستحسان والذرائع .

أما الامام الشافعى فكان اعتماده على الكتاب و السنة ثم الاجماع و أقوال الصحابة ثم القياس و كان لا يرضى بالاستحسان .

أما الامام أحمد بن حنبل فقد اعتمد على نصوص الكتاب و السنة أولا ثم فتوى الصحابى ، وعلى الاختيار عند اختلاف الصحابة وعما يوافق الكتاب والسنة ثم الأخذ بالمرسل ، يعنى الأخذ لآراء ، التابعى ثم القياس أخيراً (١٢) .

ومن الشروط التى وضعها العلماء لمن يكون أهلا للاجتهاد: ١- العلم بالعربية. ٢- العلم بالقرآن ٣- العلم بالسنة ٤- معرفة مواضع الخلاف ، و مثال مواضع الاجماع أصول الفرائض ، كالصلاة و عدد ركعاتها ٥- معرفة القياس ٦- معرفة مقاصد الأحكام ٧- صحة الفهم و حسن التقدير ٨- صحة النية و سلامة الاعتقاد، أما مراتب الاجتهاد و طبقات أهله ، فذكروها كما يلى :

١- المجتهدون فى الشرع ، و هم المجتهدون المستقلون ، هؤلاء ليسوا تابعين لأحد إلا الصحابة رضى الله عنهم .

و من هؤلاء فقهاء التابعين أمثال سعيد المسيب ، وإبراهيم النخعى ، والفقهاء

أصحاب المذاهب مثل جعفر الصادق ، و أبى حنيفة ، ومالك ، و الشافعى ، و أحمد و الأوزاعى ، و الليث بن سعد و سفيان الثورى و غيرهم ، وقد يدخل فيهم مثل أبى يوسف و محمد بن الحسن و غيرهما .

و يرى الشافعية و أكثر الحنفية أنه يجوز فتح باب هذا الاجتهاد و لكن المتأخرين أغلقوه ، و مع أن هذا الاغلاق لم يكن اغلاقاً قوياً ، و قارب المالكية الرأيين ، أما الحنابلة فانهم لا يغلقون باب الاجتهاد ، بل يقولون لا يجوز خلو عصر من مجتهد مستقل .

٢ — المجتهدون المنتسبون ، هم الذين اختاروا ما قرره الامام بالنسبة لأصول الاستنباط و خالفوه فى الفروع .

و لم يخل عصر من القرون الأولى التى تلت عصر الأئمة من هذا الصنف الذى يتقيد بالمنهاج و لا يتقيد فى الفروع كالطحاوى و الكرخى .

٣ — المجتهدون فى المذهب ، و هم الذين إنما اجتهادهم فى استنباط أحكام المسائل التى لم يرد عن أمام مذهبهم رأى فيها .

٤ — المجتهدون المرجحون ، أنهم يرجحون بين الآراء المروية بوسائل الترجيح التى ضبطها لهم علماء الطبقة السابقة ، و هى طبقة متشابهة بالطبقة السابقة و قد تعد هى و تلك واحدة .

٥ — طبقة المستدلين ، هم يستدلون للاقوال و يبنون و يوازنون و هى طبقة مشابهة للسابقة .

٦ — طبقة الحفاظ .

٧ — طبقة المقلدين .

أما المجتهد المطلق المنتسب فى مذهب الامام أبى حنيفة ، فقد انقرض بعد

المائة الثالثة ، و ذلك لأنه لا يكون إلا محدثاً جهبذاً ، و اشتغالهم بعلم الحديث قليل قديماً و حديثاً ، كما ذكر الامام الدهلوى فى كتابه الانصاف ، و إنما كان فيه المجتهدون فى المذهب ، وهذا الاجتهاد — أراد من قال — أدنى الشروط للمجتهد فيه حفظ « المبسوط » (١٤) .

أما فى مذهب الامام مالك فقد قل المجتهد المنتسب ، وكل من كان منهم بهذه المنزلة فانه لايعد تفرده وجهاً فى المذهب ، كأبى عمر المعروف بابن عبد البر ، و القاضى أبى بكر بن العربى .

و أما مذهب الامام أحمد بن حنبل فكان قليلا قديماً ، و كان فيه المجتهدون طبقة بعد طبقة إلى أن انقرض فى المائة التاسعة .

ومنزلة مذهب أحمد من مذهب الشافعى منزلة مذهب أبى يوسف و محمد بن الحسن من مذهب أبى حنيفة ، إلا أن مذهبه لم يجمع فى التدوين مع مذهب الشافعى كما دون مذهبهما مع مذهب أبى حنيفة فلذلك لم يعد مذهباً واحداً ، كما يقول الامام الدهلوى .

أما مذهب الشافعى فأكثر المذاهب مجتهداً مطلقاً ، ومجتهداً فى المذهب ، وأكثر المذاهب أصولياً و متكلماً ، و أوفرها مفسراً للقرآن وشارحاً للحديث ، وأشدها إسناداً و رواية وأقواها ضبطاً لنصوص الامام ، وأشدها تميزاً بين أقوال الامام و وجوه الأصحاب ، و أكثرها اعتناءاً بترجيح بعض الأقوال والوجوه على بعض ، و مادة مذهب الشافعى من الأحاديث و الآثار مدونة مشهورة مخدومة ، ولم يتفق مثل ذلك فى مذهب غيره ، فقد بنى مذهبه على كتاب المؤطا ، ومن مادة مذهبه صحيح البخارى وصحيح مسلم ، و كتب أبى داؤد و الترمذى و ابن ماجة والدارمى ثم مسند الشافعى و سنن النسأى و سنن الدارقطنى و سنن البيهقى و شرح السنة للبغوى ، أما البخارى فمجتهد منتسب إلى الشافعى » (١٥) .

أما تحول الاجتهاد إلى التقليد بسبب ظهور الكتاب لذلك و بتأثير مرور الزمن ولنفسية تقليد المتأخر للمتقدم ، فتاريخه فيما يلى بالاختصار ، وهو بألفاظ الامام الدهلوى رحمه الله :

يقول الامام الدهلوى فى كتابه « حجة الله البالغة » :

« اعلم أن الناس كانوا قبل المأية الرابعة غير مجمعين على التقليد الخالص لمذهب واحد بعينه ، قال أبو طالب المكى فى « قوت القلوب » إن الكتب و المجموعات محدثة و القول بمقالات الناس ، و الفتيا بمذهب الواحد من الناس و اتخاذ قوله و الحكاية له من كل شئ و التفقه على مذهبه لم يكن الناس قديماً على ذلك فى القرنين الأول و الثانى » انتهى ، أقول : و بعد القرنين حدث فيهم شئ من التخريج غير أن أهل المائة الرابعة لم يكونوا مجمعين على التقليد الخالص على مذهب واحد والتفقه له والحكاية لقوله كما يظهر من التتبع ، بل كان فيهم العلماء والعامة .

و كان من خبر العامة أنهم كانوا فى المسائل الاجماعية التى لا اختلاف فيها بين المسلمين أو جمهور المجتهدين لا يقلدون إلا صاحب الشرع ، كانوا يتعلمون صفة الوضوء و الغسل و الصلاة والزكاة ونحو ذلك من آبائهم أو معلمى بلدانهم ، فيمشون حسب ذلك ، و إذا وقعت لهم واقعة استفتوا فيها أى مفت وجدوا من غير تعيين مذهب .

وكان من خبر الخاصة أنه كان أهل الحديث منهم يشتغلون بالحديث ، فيخلص إليهم من أحاديث النبى ﷺ و آثار الصحابة ما لا يحتاج معه إلى شئ آخر فى المسألة من حديث مستفيض أو صحيح قد عمل به بعض الفقهاء ، و لا عذر لتارك العمل به ، أو أقوال متظاهرة لجمهور الصحابة و التابعين مما لا يحسن مخالفتها ، فان لم يجد أحدهم فى المسألة ما يطمئن به قلبه لتعارض النقل وعدم وضوح الترجيح

و نحو ذلك ، رجع إلى كلام بعض من مضى من الفقهاء ، فان وجد قولين اختار أوثقهما ، سواء كان من أهل المدينة أو من أهل الكوفة ، وكان أهل التخريج منهم يخرجون فيما لا يجدونه مصرحاً ، و يجتهدون فى المذهب ، و كان هؤلاء ينسبون إلى مذهب أصحابهم ، فيقال فلان شافعى وفلان حنفى ، و كان أصحاب الحديث أيضاً قد ينسب إلى أحد المذاهب لكثرة موافقته له كالنسائى و البيهقى ينسبان إلى الشافعى ، فكان لا يتولى القضاء و لا الافتاء إلا مجتهد و لا يسمى الفقيه إلا مجتهداً ، ثم بعد هذه القرون كان ناس آخرون ، ذهبوا يميناً وشمالا » (١٦) .

واستمر ذلك إلى أن أصبح التقليد منهجاً مختاراً عند العلماء لم يكونوا يخرجون منه إلا نادراً و إذا اشتدت الحاجة فكانوا يبحثون فى نطاق آراء المذهب الذى يتبعونه ، وقد وافقهم ذلك فى الأوضاع التى مروا من خلالها فى القرون المتأخرة ، و وجدوا فيها صيانة للشريعة الاسلامية من عبث العابثين و رغبة أهل الأهواء من أصحاب النفوذ و الحكم من المسلمين ، و خاصة فى عهد الحكم التتارى و الحكم المغولى ، وكان لا بد من المحافظة على القديم و الاكتفاء باجتهاد القدامى من أئمة الفقه الاسلامى الأعلام لمصلحة صيانة الشريعة الاسلامية من أن تكون هدفاً للعبث بها من أهل الأهواء و المصالح الفردية و الدنيوية .

و استمرت الحياة المدنية للمسلمين على المنهج الذى كان نشأ لهم فى عهد تدوين الفقه الاسلامى و تبيين الشريعة الاسلامية ، — القرن الثانى و الثالث تقريباً — ولم يحدث فى القرون المتأخرة شئ ذو خطورة و أهمية كبيرة مما يبعث على عمل اجتهادى ملحوظ .

و لكن عهد المدنية الغربية الحديث الذى واجهه الشرق الاسلامى ورأى منها تحديات خطيرة لا تقل أهمية من التحديات المدنية التى واجهها عند خروج العرب

من جزيرتهم و اختلاطهم بالأمم الراقية ، و عند انتقالهم من بساطتهم البدوية إلى تبحر الحياة المدنية و الاجتماعية ، و التى عالج المسلمون تحدياتها بجهود أئمتهم العماليق فى الدين و العلم ، و نجحوا فى القيام نحوها بما يجب و ما يتلاءم مع مصالحهم و خصائصهم كأمة ذات رسالة سماوية خالدة .

و الأمة الإسلامية تواجه اليوم تحديات جديدة فى حياتها المدنية و الاجتماعية شبيهة بعض الشبه فى خطورتها بالتحديات القديمة و تنتظر هذه التحديات من علماء الأمة الأعلام كفاءة مخلصة و قدرة علمية متفوقة مع الأمانة الدينية الثابتة و لا يصح معالجتها إلا بالشروط التى يبنها أئمة الفقه الاسلامى الأعلام لمن يقوم بعمل الاجتهاد .

فقد ظهرت قضايا فى الحياة المدنية لا يجد المسلمون أنفسهم فى غنى عن مواجهتها و معالجتها ، فهم إما يواجهونها بالتغابى عنها و الإنكار ، و إما يواجهونها بالميوعة و الاستسلام ، و كلاهما وضع لا يتفق مع هذا الدين الاسلامى الذى هو آخر الأديان السماوية و دين كل عصر و مصر إلى يوم القيامة ، و بذلك يتحتم على علماء الدين الاسلامى أن يروا إلى ما يساعدهم من عمل الاجتهاد ويفتحوا من أبوابه ما لا يضر فتحه بروح الشريعة الاسلامية وطبيعتها ، بل يحل المشاكل الفقهية الاسلامية حلا لائقاً بجدارة الدين الاسلامى لكل زمان و مكان .

و يمكن ذلك بطريق الاجماع الذى هو أقوى و آمن صور الاجتهاد فى الشريعة الاسلامية ، فان اجتهاد شخص من الأشخاص أو طائفة محدودة من العلماء مهما عظمت و دقت كفاءتهم العلمية فى الشريعة الاسلامية عرضة لتأثير الهوى من هذا الشخص أو الطائفة ، أو مصلحة سياسية أو وطنية محدودة .

فمن القضايا الجديدة المستدعية للتفكير الاجتهادى و البحث الفقهى قضايا

نتجت من نظم مالية و اقتصادية سادت اليوم فى المجتمعات الانسانية المتحضرة ، وسيطرت على الحركة الاقتصادية السائدة ، وهى تتم كلها باستخدام الربا الذى حرمه الله و رسوله بنصوص صريحة فما هى حلول المشاكل النابعة من ملابساتها ، و كذلك قضايا نتجت من استخدام وسائل السفر السريعة ومن تواجد الناس فى أقاصى الشمال و الجنوب من الأرض حيث يزداد طول النهار أو الليل فى أزمان السنة المختلفة و وصول الإنسان إلى غير كرته الأرضية ، فان ذلك كله إنما تنشأ منه قضايا ذات صلة بالدين و العبادة .

و من قضايا الحياة المعاصرة قضايا لا تتعارض أساساً مع الأحكام الصادرة من مصادر التشريع الاسلامى الأولى القرآن و السنة ، و لكنها تتعارض بالنسبة إلى التعليلات الفقهية التى وضعها علماء الفقه السابقون ببصيرتهم العقلية فى الأحكام الشرعية ، فليس الاجتهاد فى هذه التعليلات و الآراء اجتهاداً ذا خطورة كبيرة و من أمثلتها حقيقة الصوت الخارج من آلة جهر الصوت ، هل هو بمثابة صوت الانسان أم هو صدى لا ينوب مناب الصوت الانسانى ، و قد اختلف العلماء فى ذلك و أبدت طائفة منهم الإستنكار ثم هدأت منهم المعارضة ، و كذلك الصلاة على أرضية الطائرة التى لا تتصل بسطح الأرض على الحكم الفقهى ، فهل تجوز الصلاة عليها فقد أنكر عدد من العلماء أداء الصلاة عليها ، نظراً لهذا السبب مدة من الزمن ، ثم تركوا إنكارهم .

وقد برزت مشكلة فقهية فى الشمال الأوربى عندما عرف العلماء أن الشفق الأبيض لا يغيب فى ليالى الصيف فشعروا بذلك بأن علة وجوب صلاة الفجر غير موجودة فهل تجب صلاة الفجر أم لا ، ثم إن عدم غيبة الشفق الأبيض يجعل مبدأ الصوم فى تلك الأيام أمراً غير واضح ، فمتى يبدأ الصوم ، فان الخلاف يجرى فى ذلك

بين علماء الاسلام فى القارة الأوربية .

هذه بعض القضايا مما لا يتفق مع التعليلات الفقهية الموجودة فى كتب الفقه فمن الجدير بها أن ينظر إليها من ناحيـة روح العبادة و الدين المقتبسة من الأوامر و الأحكام المنبثقة من نصوص الكتاب و السنة لا من ناحيـة الأسس النظرية والتعليلات الموضوعة فى زمن بعينه من الأزمان بعد عهد التشريع الاسلامى الأول .

أما الاجتهاد الذى ينادى به المتطرفون من المسلمين و حكامهم المصابون بمركب النقص أمام الحضارة الأوربية الحديثة ، فانهم لا يريدون بنداءهم التماس الطريق الأجدى للسلوك الاسلامى الصحيح فى أوضاع الحياة المتغيرة ، بل يريدون توفيق الشريعة الاسلاميـة للأوضاع الجديدة ، وإن كان ذلك تعديلا فى الأحكام الاسلامية الثابتة ، مثل إلغاء الحكم الذى يمنع التبرج الجاهلى للمرأة و تعريهـا من لباسها ، و منه تعديل أحكام الزواج و الطلاق ، و منه تحرير العبادات من أوقاتها المفروضة لها من نصوص الكتاب و السنة ، فطلب هؤلاء للاجتهاد فى الشريعـة الاسلامية ليس طلباً للاجتهاد بل هو طلب للتغير فيما لا يحتمل التغير من الأحكام الاسلامية ، إنها كلمة حق يراد بها الباطل .

فان الاجتهاد فى الاسلام ليس معناه تغيير حكم قطعى ثابت من مصادر التشريع الاسلامى ، بل إنه استنباط لحكم الاسلام فى أمر ظنى لم يرد فى شأنه تصريح أو دليل قاطع .

و ذلك لأن الشريعة الاسلامية مؤلفة من أمور قطعية و أمور ظنيـة ، أما الأمور القطعية فلا تحتمل الزيادة و النقص و لا التغير باجتهاد عقلى و علمى من عالم أو محقق ، و لا يجوز فيها اجتهاد جديد ، و هى مثل الصلوات و أوقاتهـا ، و العبادات المفروضة الأخرى و صورها القطعية الثابتة . و كذلك الأعمال المحرمة

الثابت تحريمها ، مثل الخمر و الميسر و لحم الخنزير و الربا ، و ما إلى ذلك من فرائض أو محرمات و كبائر الآثام .

أما الأمور الظنية فهى التى ليس فيها تصريح قاطع من مصادر التشريع الاسلامى و التى تحتمل استعمال الرأى لتحـديد صورة منها أو تعيين حكم فيها ، فلاصحاب المعرفة الواسعة لروح الدين و أحكامه أن يروا فيها رأيهم و يقوموا بتغليب صورة من صورها أو تقرير حكم لوضع جديد بالقياس على حكم مشابه له قبله بقدر احتمالها لذلك .

و عمدة المجتهد فى اجتهاده حيث لا نص من كتاب و لا سنة ، إنما هو الغوص فى الكتاب و السنة و تلمس الأشباه و النظائر ثم القياس عليهما كما جاء فى كتاب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى (١٧) .

فلا يقرر ضرورة الاجتهاد لحكم من الأحكام فى وضع ظهر جديداً إلا علماء الشريعة الاسلامية و لا يقوم بعمل الاجتهاد إلا أهل البصيرة الدينية و الكفاءة العلمية الاسلامية الممتازة ،لا كل من هب ودب من أدعياء العلم والمنتسبين إلى الاسلام.

-(مصادر البحث)-

(١) المدخل إلى أصول الفقه — للدكتور معروف الدوانيبى

(٢) أيضاً ، والانصاف فى بيان سبب الاختلاف — للامام ولى الله الدهلوى

(٣) الانصاف فى بيان سبب الاختلاف — » » »

(٤) موسوعة جمال عبد الناصر للفقه

(٥) عقد الجيد فى الاجتهاد و التقليد — للامام ولى الله الدهلوى

(٦) المذاهب الاسلامية فى الفقه — للشيخ أبى زهرة

(٧) الانصاف فى بيان سبب الاختلاف — للامام الدهلوى

(٨) الانصاف فى بيان سبب الاختلاف	الامام الدهلوى
(٩) ,, ,, ,,	,, ,,
(١٠) ,, ,, ,,	,, ,,
(١١) ,, ,, ,,	,, ,,
(١٢) المذاهب الاسلامية فى الفقه	للشيخ أبى زهره
(١٣) ,, ,, ,,	,, ,,
(١٤) الانصاف فى بيان سبب الاختلاف	الامام الدهلوى
(١٥) ,, ,, ,,	,, ,,
(١٦) أيضاً ، و حجة الله البالغة	,, ,,
(١٧) المدخل إلى أصول الفقه	للدكتور معروف الدواليبى
و مواطن الاجتهاد فى الشريعة الاسلامية	للاستاذ محمد المدنى

بيان مذهب أهل السنة فى الاستواء و سائر الصفات

سماحة العلامة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز
الرئيس العام لادارات البحوث العلمية
و الافتاء و الدعوة و الارشاد (الرياض)

الحمد لله و الصلاة و السلام على رسول الله و آله و صحبه و بعد :

فقد اطلعت أخيراً على ما نشر فى مجلة « البلاغ » بعددها رقم ٦٣٧ من إجابة الشيخ أحمد محمود دهلوب على السؤال الآتى (ما تفسير قوله تعالى « استوى على العرش ») و جاء فى هذه الاجابة جملة نسبها إلى السلف و هى قوله (و قال أهل السلف استوى على العرش ، استولى عليه و ملكه ، كقولهم :

استوى بشر على العراق من غير سيف أو دم مهراق

و حيث إن هذه النسبة إلى السلف غلط محض ، أحببت التنبيه على ذلك لئلا يغتر من يراها فيظنها من قول العلماء المعتبرين ، و الصواب أن هذا التفسير هو تفسير الجهمية و المعتزلة و من سلك سبيلهم فى نفى الصفات وتعطيل البارى سبحانه و تعالى عما وصف به نفسه من صفات الكمال ، و قد أنكر علماء السلف رحمهم الله مثل هذا التأويل و قالوا إن القول فى الاستواء كالقول فى سائر الصفات و هو إثبات الجميع لله على الوجه اللائق به سبحانه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، قال الامام مالك رحمه الله (الاستواء معلوم والكيف مجهول و الايمان به واجب و السؤال عنه بدعة)

و على هذا درج علماء السلف من أهل السنة و الجماعة رحمهم الله قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله فى رسالة الحموية (فهذا كتاب الله من أوله إلى آخره و سنة رسوله ﷺ من أولها إلى آخرها ثم عامة كلام الصحابة و التابعين ثم كلام سائر الأئمة مملوء بما هو إما نص و إما ظاهر فى أن الله سبحانه و تعالى هو العلى الأعلى و هو فوق كل شئ و هو عال على كل شئ و إنه فوق العرش وإنه فوق السماء مثل قوله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » « إنى متوفيك و رافعك إلى » « أم أمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض ، أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً » « بل رفعه الله إليه » « تعرج الملآئكة والروح إليه » « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه» « يخافون ربهم من فوقهم » « ثم استوى على العرش » فى سبعة مواضع إلى إن قال إلى أمثال ذلك مما لا يكاد يحصى إلا بالكلفة ، و فى الأحاديث الصحاح و الحسان ما لا يحصى إلا بالكلفة مثل قصة معراج الرسول إلى ربه و نزول الملائكة من عند الله و صعودها إليه و قوله فى الملآئكة الذين يتعاقبون فيكم بالليل و النهار (فيعرج الذين باتوا فيكم إلى ربهم فيسألهم و هو أعلم بهم) و فى الصحيح فى حديث الخوارج (ألا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء يأتينى خبر السماء صباحاً و مساء) إلى أن قال (إلى أمثال ذلك مما لا يحصيه إلا الله مما هو من أبلغ المتواترات اللفظية و المعنوية التى تورث علماً يقيناً من أبلغ العلوم الضرورية أن الرسول المبلغ عن الله ألقى إلى أمته المدعوين أن الله سبحانه على العرش و أنه فوق السماء ، كما فطر الله على ذلك جميع الأمم عربهم وعجمهم فى الجاهلية و الاسلام إلا من اجتالته الشياطين عن فطرته ، ثم عن السلف فى ذلك من الأقوال ما لو جمع لبلغ مئين أو ألوفاً ، إلخ) اهـ .

وبما ذكرناه يتضح للقرآن ما نسبه أحمد محمود دهلوب إلى السلف من تفسير

الاستواء بالاستيلاء غلط كبير و كذب صريح لا يجوز الالتفات إليه بل كلام السلف الصالح فى ذلك معلوم و متواتر وهو ما أوضحه شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله من تفسير الاستواء بالعلو فوق العرش و أن الايمان به واجب و أن كيفيته لا يعلمها إلا الله سبحانه ، و قد روى هذا المعنى عن أم سلمة أم المؤمنين و عن ربيعة بن أبى عبد الرحمن شيخ مالك رحمه الله و هو الحق الذى لاريب فيه و قول أهل السنة و الجماعة بلاريب ، و هكذا القول فى باقى الصفات من السمع و البصر و الرضى و الغضب ، و اليد و القدم و الأصابع و الكلام و الارادة و غير ذلك ، كلها يقال فيها إنها معلومة من حيث اللغة العربية ، فالايمان بها واجب و الكيف مجهول لنا لا يعلمه إلا الله سبحانه مع الايمان بأن صفاته سبحانه كلها كاملة و أنه سبحانه لا يشبه شيئاً من خلقه فليس علمه كعلمنا و لا يده كأيدينا و لا أصابعه كأصابعنا و لا رضاه كرضانا إلى غير ذلك كما قال سبحانه (ليس كمثله شئ و هو السميع البصير) وقال تعالى (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفواً أحد) و قال تعالى (هل تعلم له سمياً) و المعنى أنه لا أحد يساميه سبحانه أى يشابهه . وقال عز و جل (فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم و أنتم لا تعلمون) و الآيات فى هذا المعنى كثيرة و الواجب على المؤمن التمسك بما أخبر الله به و رسوله و درج عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم و أتباعهم باحسان و الحذر من مقالات أهل البدع الذين أعرضوا عن الكتاب والسنة و حكموا أفكارهم وعقولهم ، فضلوا و أضلوا ، و الله المسئول أن يحفظنا و جميع المسلمين من مضلات الفتن و أن يعيذنا و سائر المسلمين من نزغات الشيطان و اتباع خطواته ، إنه ولى ذلك و القادر عليه ، و صلى الله وسلم على نبينا محمد و آله و صحبه أجمعين .

دراسات وأبحاث

مقدمة المصفى شرح الموطأ

-(٣)-

الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى
تعريب : محمد أكرم الندوى

أصل مذهب مالك :

إعلم أن أصل مذهب مالك أنه يستدل بالمسانيد و المراسيل ، و قول عمر و عمل عبد الله بن عمر ، و يأخذ بفتاوى الصحابة و التابعين ، ولاسيما إذا كان إجماع جماعة منهم ، فلا يحتاج مالك إلى سرد إسناد للرسل و ذكر مآخذ لقول عمر و عمل عبد الله بن عمر جرياً على أصله .

عناية الشارح بوصل المراسيل و ذكر مآخذ أقوال الصحابة :

ولكن نظراً إلى اتفاق جمهور المحدثين على الفرق بين المسند و المرسل أردت أن أذكر الأسانيد للراسيل بصناعة الاعتبار و الشواهد ، و كذلك مآخذ أقوال الصحابة باشارات الكتاب و السنة أو القياس على النصوص .

معنى المحدث و المجتهد و الفرق بينهما :

و اعلم أن هناك فرقاً بين المحدث و المجتهد ، فوظيفة المحدث رواية الحديث و تمييز التحريف و التصحيف و شرح الغريب ، و ذكر دلالة العبارات لغة ، ومعرفة أسماء الرجال جرحاً وتعديلا ، وضبط المشكل ، والحكم بالصحة والضعف ، و النظر فى الاعتبار و الشواهد ، و الحكم بالاستفاضة و الغرابة ، و تسمية المبهم

و ما إلى ذلك ، و إذا حاز المحدث هذا المكان فقد بلغ ذروة الحفظ و الضبط و الاتقان .

وظائف المجتهد :

و وظيفة المجتهد تحديد الألفاظ المشتبهة ، وتعيين الركن و الشرط و الآداب فى كل شئ ، و تعيين الندب و الوجوب فى الصيغ الدالة على الأمر ، و تعيين الكراهية والحرمة فى الصيغ الدالة على النهى ، واستنباط علة كل حكم ودليله ، ومعرفة الاطلاق و التقييد والاحتراز و الاتفاق ، و نقل الأقوال المخرجة من باب إلى باب ، و تفريع المسائل و تطبيقها على الأحكام المذكورة فى النص بتعميمها ، بالاقتضاء أو بالاشارة أو القياس أو الالتزام ، وغير ذلك ، وإذا اجتمعت الأدلة المختلفة حكم بينهما بالتطبيق و الجمع أو النسخ أو الترجيح ، و إذا أحاط العالم بهذه الأمور و نظر بعين الاجتهاد فى الأحكام من أولها إلى آخرها عاد مجتهداً مطلقاً ، و جازت له الفتوى و ارتفع منه التقليد مهما اعتمد فى هذه الصناعة على أحد أو وصل إليها بالتلمذة على أحد أو تتبع كتاب .

و تحقق هذا الأمر فى قلب المؤلف بدراسة الأم للشافعى ، و استعان فى ذلك بشرح السنة ، و كتب الشافعية ، و بالجملة فليس لى أستاذ ظاهر له منة على فى هذا الأمر ، وأما هذه الكتب فألهمت دراستها من الله سبحانه و تعالى برحمته و تاييده ، ذلك تقدير العزيز العليم .

و إذا كانت هذه الصناعات غريبة فى عصرنا وجب أن نشير إليها فى مقدمتنا هذه .

أما تحديد الألفاظ فيبتنى على أربعة أشياء : القسمة ، و المثال ، و تجريد المفهوم ، و تتبع الدلائل الشرعية .

١ — أما القسمة فعبارة عن الأخذ بالأعم من شئ شامل للطلب و لأمثاله وعد ما يندرج تحته ، ومعرفة الفرق بينه وبين نظائره ، ووضع قيد لكل فرق ، فالأعم بمنزلة الجنس ، و القيود بمنزلة الفصل .

٢ — و المثال عبارة عن الاحاطة بجزئيات شئ يطلق عليها لغة بقدر الوسع و الطاقة .

٣ — تجريد المفهوم : وهو أن يعرف لازم الوجود ولازم العقل بالوجدان عند تعلق العلم به ، ثم يسلك مسلك السبر ، و يستعرض الأوصاف و يختبرها على المحك .

٤ — و تتبع دلائل الشرع بتتبع أحكامه بوجود الحكم عند بعض القيود ، ثم يستخرج حداً جامعاً مانعاً ، و يدير الحكم على هذا الحد .

مثال القسمة أن الخروج من الوطن قد يكون للتنزه فى البساتين ، وقد يكون للهيمان من دون تعيين المقصد ، وقد يكون للسفر إلى مقصد ، و الفرق بين التنزه و السفر أن التنزه يدل على قرب المقصد و سهولة الرجوع ، و لا يوجد هذا المعنى فى السفر ، و الفرق بين الهيمان و السفر ، عدم تعيين المقصد و تعيينه .

و مثال المثال أن الخروج من جدة إلى مكة ومن عسفان إلى مكة من ذات النصب إلى المدينة يدخل فى السفر ، و هكذا .

و مثال تجريد المفهوم الخف الملبوس فى الرجلين و هو من الأديم لا من الثوب ، فكونه فوق الكعبين أو إلى الركب لا يؤثر فى الحكم ، لأن محل الفرض غسل الرجلين ، فيجب شغل محل الفرض بغض النظر عما فوقه .

و مثال تتبع دلائل الشرع التمتع فانه حج الجمع بين العمرة و الحج فى أشهر الحج بقوله تعالى « فمن تمتع بالعمرة إلى الحج » وأن يكون الحاج من أهل

الآفاق ، لقوله تعالى « و ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام » و الله أعلم بالصواب .

أما تعيين الركن و الشرط فيبتنى عل تتبع نصوص الشرع وإشاراته ، واستقراء المواضع التى ورد فيها اسمه فى الشرع ، و البحث عن الأجزاء و الشروط وتجريد المفهوم الذى استقر فى القلب من الأمور العادية بالدلائل كتتبع النصوص وإشارات الشرع ، مثاله : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » و « تحريمها التكبير وتحليلها التسليم » و « ارجع فصل فانك لم تصل » ثم قال « إذا قمت إلى الصلاة إلخ » « لا تقبل صلاة أحدكم حتى يتوضأ ، دعهما فانى أدخلتهما طاهرتين » .

و الاستقراء أن ينظر فى أفراد الوضوء و الصلاة و الحج و يأخذ المتفق عليه و يميز منها الأمور العادية ، مثاله أن الشغدف و الشبرى لم يكونا فى زمن النبى ﷺ ، و العقل يدل على أنهما خارجان من الحج ، و كونهما و عدمهما لا يؤثران فى الحكم ، و المناط هو الخروج من الوطن .

وإن النبى ﷺ صلى أربع ركعات بالمدينة و ركعتين بذى الحليفة ، ولا تأثير لخصوصية ثلاثة أميال ، و المناط هو الخروج من الوطن .

و مثال الاستقراء و التجريد فى العرف أن أعجمياً يذهب إلى بلاد العرب فيسمع كلمتى الماء و النار فى محليهما ، و يفهم معنى الماء و النار مهما لم يصرح بذلك أحد وقد يخطئ فى ذلك فيظن أن الماء خاص بماء العين والبئر لأنهم يستخدمون ماءهما عادة ، ثم يعرف بعد تفكير أنه يطلق على ماء البحر كذلك .

وأما معرفة علة الحكم أن الله أراد أن يعلم عباده رضاه عن سخطه ، ولا يمكن تصريح أفعال سائر المكلفين ، فوجب أن يختار أصل يدار عليه الحكم من أوصاف المكلفين أو ما يقع عليه الفعل ، وقد يكون ذلك الوصف مركباً من قيود شتى ،

بعضها فى المكلف أو ما يقع عليه الفعل ، و بعضها فى غيره و القيد قد يكون استثناء ، وقد يكون غيره ، ويسمى هذا الوصف علة يدار عليها الحكم من الوجوب أو الندب أو الاباحة أو الكراهة أو الحرمة ، و لا تعدى العلة أكثر من ذلك .

مثال الوصف فى المكلف : من أدرك صلاة و هو عاقل بالغ مطيق غير حائض وجب أن يصليها ، و من شهد الشهر و هو عاقل بالغ مطيق غير مسافر ولا مريض ولا حائض وجب أن يصومه ، و من ملك نصاباً و حال عليه الحول و ليس عليه دين ، يحيط بالنصاب أو ينقصه ، وجب أن يزكيه ، ومن كان مسافراً جاز له القصر و الافطار .

ومثال الوصف فيما يقع عليه الفعل ، يحرم شرب الخمر ويحرم أكل الخنزير ، و يحرم أكل كل ذى ناب من السباع و يحرم نكاح الأمهات .

و مثال الوصف فى المكلف و ما يقع عليه جميعاً ، يحرم على الرجال لبس الذهب و الحرير و لا يحرم على النساء .

ثم فرز العلة من أوصاف النص عمل شاق من أعمال الاجتهاد ، و هذا يبتنى على تتبع دلائل الشرع و السبر و الحذف و تنقيح المناط و معرفة المناسبة العقلية واستقراء مواضع الحكم وعدم الحكم ، وتجريد العلة من الأوصاف العادية .

وأما تتبع الدلائل الشرعية ، فمثاله : « الزانية و الزانى فاجلدوا كل واحد منهما » فقرر الحديث أن هذا فى غير المحصن ، و أما المحصن فيرجم ، و قوله تعالى : « و السارق و السارقة فاقطعوا أيديهما » و عرف بالحديث أن لا قطع إلا فى ربع دينار .

ومثال السبر والحذف وتنقيح المناط : « البر بالبر رباً إلخ » فنظرنا فى سائر أوصاف البر واحداً واحداً لم نجد ما يصلح للعلة منها إلا الطعم والاقتيات والادخار

فى القدر و الثمنية فى الأثمان .

ثم قد يكون تتبع الدلائل الشرعية بالنص كقوله « كل مسكر حرام » وقد يكون بالاشارة و الاقتضاء ، و هذا مبحث طويل .

فاذا ظفرت بعلة الحكم أمكنك استنباط القاعدة الجامعة المانعة بأدنى عناية و أما معرفة الرضاء فيكون بالصيغ الدالة على الرضاء و السخط و الحب و البغض و الرحمة و اللعنة و القرب و البعد ، و نسبة الفعل إلى المرضيين كالأنبياء و أهل الجنة و إلى المغضوب عليهم كالشياطين و المنافقين و أهل النار ، و الأمر و النهى و بيان الجزاء المترتب على الفعل والتشبيه بمحمود فى العرف كالمسك أو بمذموم فى العرف كقيء الكلب ، واهتمام النبى ﷺ بفعله والاجتناب عنه مع الدواعى إليه .

أما التمييز بين الرضا المؤكد أى الوجوب و الرضا غير المؤكد أى الندب ، و السخط المؤكد أى الحرمة و السخط غير المؤكد أى الكراهة فيحصل بتتبع الدلائل الشرعية كما جاء : « طوق شجاعاً أقرع » و كدخول صدقة الفطر فى الزكاة بتسمية الشارع إياها زكاة الفطر ، و قول فقهاء الصحابة كقول عمر « إن سجدة التلاوة ليست بواجبة » و قول على و ابن عمر و عبادة أن الوتر ليس بواجب و النظر فى حال المقصد أنه تكميل لطاعة أو سد لباب ثم ، أو وقار وسمت فهو غير مؤكد أو داخل فى ركن من أركان الاسلام أو هو من الكبائر فيكون مؤكداً .

و أما التخريج فهو إثبات الحكم فى نظير المسألة ، كما رأينا أن الشارع اعتبر التحرى فى استقبال القبلة ، فخرجنا منه هذا القول نفسه فى اشتباه أوانى الماء الطاهر مع غير الطاهر ، و اشتباه الثياب الطاهرة مع غير الطاهرة ، و كذلك فى سائر شروط الصلاة .

و أما التفريع فهو أن تحدث حادثة لا نجد لها بعينها حكماً فى أصول مذهبنا ، فاذا وجدنا نظيراً لها مصرحاً حكمنا به ، أو وجدنا عموماً أدخلناه فيه ، و استدللنا بملازمة الأمور المصرحة أو منافاتها ، أو بالايماء و الاقتضاء و فحوى الكلام ، وفحوى الكلام كفهم حرمة الضرب من قوله تعالى « لاتقل لهما أف » ، و الاقتضاء كقوله « اعتقت و بعت » دليل على ملك سابق ، و « صليت » دليل على طهارة سابقة .

و أما الايماء فهو دلالة المفهوم و الاستثناء و الغاية و العدد و الشرط و الوصف .

و هذه المباحث أكثر من أن يسع تفصيلها هذا المكان ، لكن ما لا يدرك كله لا يترك كله ، وهذه مقدمات الاجتهاد و الاستنباط تستخدم فى الجزم بالأمور الشرعية لا فى الجدل و المراء الذى ليس من الشرع فى شئ ، بل اخترعه علماء الدنيا لنفاق سوقهم ، و قال النبى ﷺ « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » .

و اعلم أن هذا الفقير روى الموطأ عن الشيخ أبى طاهر المدنى و الشيخ تاج الدين القلعى و السيد عمر بن أحمد عقيل ابن بنت الشيخ عبد الله بن سالم البصرى ثم المكى بسماع البعض وإجازة الباقى ، ثم قرأ على الشيخ وفد الله المغربى المكى المولد و المنشأ من أوله إلى آخره ، و ههنا اكتفى بذكر هذا الاسناد الذى هو مسلسل بسماع الجميع ، و الله يقول الحق و هو يهدى السبيل .

آراء الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى
فى
تاريخ التشريع الاسلامى

الأستاذ سلمان الحسينى الندوى

ألمت — فيما سبق — بالفقه التخريجى الذى كان نتيجة تعويل أتباع الأئمة المجتهدين على اجتهاداتهم و أصولهم ، و قواعدهم للبحث و النظر ، و لا شك أن هذا لم يكن يوجد فى القرنين الأول و الثانى ، فقد كان الأئمة و تلامذتهم إلى هذا العصر مستقلين بنظراتهم الثاقبة ، رغم ميلهم إلى إحدى المدارس الفقهية و ارتضائهم لأصولها و أكثر فروعها ، وكانت طريقتهم فى الاستدلال تشبه طريقة أساتذتهم من الأئمة ، فكانوا ينسجون على منوالهم ، و يحتذون حذوهم .

نواة التقليد :

و لكن القرن الثالث شهد شيئاً من التحول ، و بدأ التخريج يأخذ طريقه فى تفكير أتباع الأئمة و تلامذة تلامذتهم الذى كان نواة أولى تمهد الطريق التقليد ، إلا أن الناس كانوا أحراراً يتبعون الدليل إذا كانوا مثقفين ، أو يتبعون المذهب المعروف فى بلدهم الذى يقوم عليه و يفتى به علماؤهم وقضاتهم .

موقف الناس من المذاهب فى القرن الثالث :—

فكان الناس فى ذلك على درجتين كما يقول الامام الدهلوى :

١— العلماء ٢— و العامة .

« وكان من خبر العامة أنهم كانوا فى المسائل الاجماعية التى لا اختلاف فيها بين المسلمين أو بين جمهور المجتهدين لا يقلدون إلا صاحب الشرع ، و كانوا

يتعلمون صفة الوضوء و الغسل و أحكام الصلاة و الزكاة و نحو ذلك من آبائهم أو علماء بلدانهم ، فيمشون على ذلك ، و إذا وقعت لهم واقعة نادرة استفتوا فيها أى مفت وجدوا من غير تعيين مذهب ، قال ابن الهمام فى آخر التحرير :

كانوا يستفتون مرة واحداً و مرة غيره غير ملتزمين مفتياً واحداً ، انتهى » (١) .

كان هذا الموقف موقفاً طبيعياً إذ أن العامة لا يهمهم مصدر المفتى فى افتائه ، و لا انتماؤه ، و لا على أى مذهب هو ، و لم تكن هناك دعوة إلى اتخاذ أى مذهب من المذاهب الأربعة ، و الانتماء إليه ، و الاعتماد وجوباً عليه ، فكان العامى يرجع إلى أحد العلماء ممن يراه على سنن العلم و التقوى و الصلاح ، و يكون معروفاً فى الناس بالفضل و العلم ، و يطمئن بقوله ، و يجعله حجة فيما بينه و بين الله ، ولا تزال العامة على ذلك لو لا الدعوة إلى المذاهب ، و التشديد فى الأخذ بها و إيجاب تقليدها ! .

موقف العلماء من المذاهب :

و أما العلماء فكانوا على مرتبتين :

١ — العلماء الممعنون فى تتبع الكتاب و السنة و الآثار الذين حصلت لهم بالقوة القريبة من الفعل ملكة الافتاء بالدليل ، يجيبون الناس فى الوقائع غالباً ، و قلما يتوقفون فى شيئ ، و هؤلاء مجتهدون ،

و هذا الاستعداد للاجتهاد و الافتاء يحصل عن طريقين :

١ — يحصل — تارة — باستفراغ الجهد فى جمع الروايات و الآثار ، فانه ورد كثير من الأحكام فى الأحاديث المرفوعة و كثير منها فى آثار الصحابة و التابعين

(١) الانصاف

و تبع التابعين ، مع ما لاينفك عنه العاقل العارف باللغة من معرفة مواقع الكلام و أساليبه و مقاصده و إشاراته ، و صاحب العلم بالآثار من معرفة طرق الجمع بين الروايات المختلفة ، و ترتيب الدلائل و نحو ذلك ، و من أحسن النماذج العبقرية التى وصلت إلى درجة الاجتهاد عن هذا الطريق الامامان القدوتان أحمد بن محمد بن حنبل (٢٤١) و اسحاق بن راهوية (م ٢٣٨) (١) .

٢ — و يحصل تارة باحكام طرق التخريج و ضبط الأصول المروية فى كل باب باب عن مشايخ الفقه من الضوابط و القواعد مع جملة صالحة من السنن والآثار ، كحال الامامين القدوتين أبى يوسف (م ١٨٢) و محمد بن الحسن (م ١٨٩) (رحمهما الله تعالى) (٢) .

٢ — و المرتبة الثانية لأولئك العلماء الذين يحصل لهم من معرفة القرآن و السنن ما يتمكنون به من معرفة رؤوس الفقه ، و أمهات مسائلها بأدلتها التفصيلية ، و يحصل لهم غالب الرأى ببعض المسائل الأخرى من أدلتها و توقفوا فى بعضها و احتاجوا فى ذلك إلى مشاورة علماء آخرين لأنهم لم تتكامل لهم أدوات الاجتهاد كما تتكامل للمجتهد المطلق ، فهؤلاء مجتهدون فى بعض المسائل غير مجتهدين فى بعضها الآخر » (٣).

لقد كانت هذه الطبقة الثانية من العلماء فاتحة عهد التقليد ، فقد بدأ يظهر فى القرن الثالث التمذهب بمذاهب المجتهدين ، و لكنه لم يكن عن عصبية و إصرار ، بل إنما كان ضرورة علمية ، و تطوراً طبعياً سليماً . و ذلك أن المشتغل بالفقه فى ذلك الزمان لم يكن يخلو عن حالتين :

(١) الانصاف ٦٩ . (٢) الانصاف ص ٧٠ .

(٣) أنظر الانصاف ص ٧٠ فقد أوردت العبارة بشئ من التصرف .

١ – إحدهما أن يكون أكبرهمه معرفة المسائل التى قد أجاب فيها المجتهدون من قبل من أدلتها التفصيلية ، و نقدها و تنقيح مأخذها و ترجيح بعضها على بعض ، وهذا أمر جليل لا يتم له إلا بامام يتأسى به قد كفى مونة فرش المسائل وإيراد الدلائل فى كل باب باب ، فيستعين به فى ذلك ، ثم يستقل بالنقد و الترجيح ، و لو لا هذا الامام صعب عليه ، و لا معنى لارتكاب أمر صعب مع إمكان الأمر السهل » (١) .

هذه الحالة الطبيعية الأولى لكل من يشتغل بالفقه و يحاول الوصول إلى درجة الاستقلال به و الاجتهاد ، فانه لا يستغنى عن دراسة ما سبق به من الاجتهادات و الآراء ، و النظر فيها و الاستفادة منها ، وما أجمع عليه المجتهدون و ما اختلفوا فيه من الأصول و القواعد ، و الفروع و المسائل ، و ليس معنى ذلك أنه يلزمه قبول كل ما تقدم من الآراء و الاجتهادات ، إلا أنه لا بد له « أن يستحسن شيئاً مما سبق إليه إمامه ، و يستدرك عليه شيئاً » .

و من هنا يتبين نوع انتمائه إلى ذلك الامام الذى يعتنى بفقهه فاذا كان قد ارتضى مسلكه ، و منهجه ، أصوله و فروعه ، فهو المتبع لامامه عن دليل لاعن تقليد صرف ، و إذا كان يستدرك عليه « وكان استدراكه أقل من موافقته عد من « أصحاب الوجوه » فى المذهب ، وإن كان الأكثر لم يعد تفرده وجهاً فى المذهب ، وكان مع ذلك منتسباً إلى صاحب المذهب فى الجملة ممتازاً عمن يتأسى بامام آخر فى كثير من أصول مذهبه وفروعه » ويوجد لمثل هذا بعض مجتهدات لم يسبق بالجواب فيها إذ الوقائع متتالية والباب مفتوح ، فيأخذها من الكتاب والسنة ، وآثار السلف من غير اعتماد على إمامه ، ولكنها قليلة بالنسبة إلى ما سبق بالجواب فيه ، وهذا هو

(١) الانصاف ص ٧١ .

المجتهد المطلق المنتسب » (١) .

٢ – و ثانيتهما : أن يكون أكبرهمه معرفة المسائل التى يستفتيه فيها المستفتون مما لم يتكلم فيه المتقدمون ، و حاجته إلى إمام يأتسى به فى الأصول الممهدة فى كل باب أشد من حاجة الأول ، لأن مسائل الفقه متعانقة متشابكة ، فروعها تتعلق بأمهاتها ، فلو ابتدأ هذا بنقد مذاهبهم و تنقيح أقوالهم لكان ملتزما لما لا يطيقه و لا يتفرغ منه طول عمره فلا سبيل له إلى باب إلا أن يجعل النظر فيما سبق فيه ، و يتفرع للتفاريع ، و قد يوجد لمثل هذا استدراكات على امامه بالكتاب و السنة و آثار السلف و القياس ، لكنها قليلة بالنسبة إلى موافقاته ، و هذا هو المجتهد فى المذهب » (٢) .

إذن لا يخلو المشتغل بالفقه المتخصص فيه عن حالتين : إما أن يكون باحثاً فى أصول بعض الأئمة و كتبه الفقهية مع دراسة الكتاب و السنة و آثار السلف ، و نقد و تمييز و إبداء آراء و ملاحظات ، حول فقهه و كثرة خلاف له ، فهذا هو المجتهد المستقل المنتسب (و انتسابه هذا لعنايته بفقهه و دراسته المتخصصة له ، و تخرجه به) أو مع قلة خلاف له ، فهو مجتهد صاحب الوجه ، أى صاحب آراء و ملاحظات و استدراكات ، و انتسابه إلى الامام أقوى ، و إما أن يكون مفتياً تخرج بفقه أحد الأئمة ، و انتسب إليه . و يرجع فى الافتاء إلى كتبه الفقهية . أو إلى أصوله و فروعه ، و يجتهد بناءاً عليها ، و قد يخالف رأى امامه مستنداً إلى الكتاب و السنة ، أو مستنيراً بآراء الأئمة الآخرين ، هذا هو المجتهد فى المذهب ، وقد يكون المشتغل بالفقه حافظاً لفقهه ، عالماً بمسائله ، يصلح للتدريس و لا يصلح للافتاء ، أما سوى هؤلاء فهم العامة الذين قد تقدم الكلام فيهم :

(١) الانصاف ص ٧١ – ٧٢ (٢) الانصاف ص ٧٣

و تبقى حالة ثالثة و لكنها غير واقعة ، و لا طبيعية و هى أن يعيد المتفقه الكرة و يرجع إلى الأصول (الكتاب و السنة و الاجماع و القياس) رأساً و يتخطى عبقريات الأئمة ، و نتاج تفكيرهم الفقهى و تأملاتهم الفقهية فيستفرغ جهده أولا فى معرفة أولية ما سبق إليه ، ثم يستفرغ جهده ثانياً فى التفريع على ما يختاره و يستحسنه فهى حالة بعيدة ، غير واقعة لبعد العهد عن زمان الوحى ، و احتياج كل عالم فى كثير مما لا بد له فى علمه إلى ما مضى من روايات الحديث على تشعب متونها ، و طرقها و معرفة مراتب الرجال ، و مراتب صحة الحديث و ضعفه و جمع ما اختلف من الأحاديث و الآثار ، والتنبه لما يأخذ الفقيه منها ، و من معرفة غريب اللغة و أصول الفقه ، و من رواية المسائل التى سبق التكلم فيها من المتقدمين مع كثرتها جداً و تباينها و اختلافها و من توجيه أفكاره فى تمييز تلك الروايات و عرضها على الأدلة ، فاذا أنفد عمره فى ذلك كيف يوفى حق التفاريع بعد ذلك ، و النفس الانسانية — و إن كانت زكية — لها حد معلوم تعجز عما وراءه ، وإنما كان هذا ميسراً للطراز الأول من المجتهدين حين كان العهد قريباً و العلوم غير متشعبة ، على أنه لم يتيسر ذلك أيضاً إلا لنفوس قليلة ، وهم ، مع ذلك ، كانوا مقيدين بمشايخهم ، معتمدين عليهم ، و لكن لكثرة تصرفاتهم فى العلم صاروا مستقلين .

و بالجملة فالتمذهب للمجتهدين سر ألهمه الله ـ تعالى ـ العلماء و تبعهم عليه من حيث يشعرون أو لا يشعرون » (١) .

لم تكن هذه الحالة الثالثة بعيدة غير واقعة فحسب بل هى غير معقولة و لا مستساغة ، فلو راح طالب الطب يبحث فى كل ما بحث فيه ابن سينا و أمثاله من

(١) الانصاف ص ٧٢ - ٧٣ .

الأطباء الحكماء ، ليستقل بالطب و لتكون له آراء لعله ينفرد بها أو لو حاول طالب العربية أن يحاكى الأصمعى و سيبويه و الخليل و أمثالهم ، و يروح يتتبع مظان العربية ، و يبدأ من حيث بدأوا ليبنى عليه فائدته التى يرجوها من علم النحو مثلا . أيكون ذلك معقول المعنى !؟

لقد كانت هذه النظرة الواقعية تحمل العلماء و المتفقهين فى القرن الثالث وفى القرن الرابع أيضاً على إنعام النظر فى فقه الأئمة المجتهدين ، فمنهم من يجد من الوقت سعة ، و من الفطنة مدداً ، و من الذكاء حدة ، فينظر فى المذاهب كلها و يحيط بها ، و يتوسع فى دراسة الأصلين : الكتاب و السنة ، و منهم من يركز جهده على فقه إمام من الأئمة سبق أن تأثر به — بسبب من أسباب التأثر — أو اشتهر ذكره فى بلده وذاع صيته ، أو دعته حاجة الافتاء ، والقضاء إلى الاعتناء بمذهبه ، و دراسة أصوله و فروعه فيعتنى به و يصرف همه إليه .

كان هذا هو الموقف العام الذى يتخذه الناس (العامة و العلماء) تجاه فقه الأئمة الأربعة ، فى القرنين الثالث و الرابع . و إن كانت بوادر التقليد ، و الانحياز و التعصب لامام دون إمام بدأت تظهر رويداً رويداً ، و سوف نلمس آثاره الواضحة فى القرون التالية .

« يتبع »

دراسة خاصة بالأدب المخضرم :

كعب بن مالك الأنصارى

سعيد الأعظمى الندوى

النثر مع الشعر فى الجاهلية :

كانت الطريقة السائدة للكلام المنثور فى الجاهلية قاصرة الأغراض والأفكار، بعيدة عن التفلسف والابتكار، لم تكن تعتمد على صنعة أوفن. وإنما كان يلجأ أهلها إلى منثور من الكلام بحكم الاضطرار، فكان جل اعتمادهم على الشعر وأغلب أدبهم يدور حول الكلام الموزون، لذلك كانوا يفضلون الشاعر على الخطيب، و تتطلع كل قبيلة إلى بلاغة الشعر و تأثيره و تحرص على تدوين مفاخرها و مآثرها بلسان الشاعر الذى يكون حائزاً على درجة عاليـة من القبول، و لكن حظيت بعض القبائل بالجمع بين الشعر و الخطابة و وجد فيها الشاعر الفحل و الخطيب المصقع فى وقت واحد، و قد تم ذلك الجمع لبعضها فى رجل واحد حاز قصب البراعة فى النوع الموزون من الكلام مع النوع المنثور منه، و تجلت خصائصه البيانية فى كل من الشعر و النثر، و ذلك كمن يأتى اسماؤهم على سبيل المثال :

بعض الجاهليين ممن جمعوا بين النثر و الشعر :

١ – عامر بن الظرب بن عمرو بن عباد، فى قبيلة إياد، كان معاصراً للحارث الغسانى (٥٢٥–٥٦٩م) عرف بالجمع بين الشعر و الخطابة .

٢ – ذو الأصبع العدوانى، واسمه حرثان، و هو من بنى الظرب بن عمرو من بنى يشكر بن عدوان، توفى قبل الهجرة بـ ٢٥ عاماً، و قد جمع بين الشعر الجميل و النثر الجيد .

٣– قس بن ساعدة الأيادى من قبيلة إياد كذلك، توفى قبل الهجرة بـ ٢٢ عاماً، رآه رسول الله ﷺ يخطب فى سوق عكاظ خطبته المشهورة التى بدأها بقوله : «أيها الناس اجتمعوا و اسمعوا وعوا، من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت» جمع بين الشعر و النثر (١) .

كعب بن مالك من هو ؟ :

أما كعب بن مالك بن أبى كعب الأنصارى فقد أكرمه الله كذلك بالجمع بين النثر القوى غزير المادة والمعنى، والشعر الجيد السبك، فصيح اللفظ ومتين التركيب، وهو من بنى سلمة من الخزرج، ولد فى يثرب قبل نحو ٢٥/عاماً قبل الهجرة (٢) .

واسمه عمرو بن القين بن كعب بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصارى، وكنيته أبو عبد الله، و قيل أبو عبد الرحمن، و قيل أبو محمد و قيل أبو بشير المدنى الشاعر (٣) .

« و قال البغوى : حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنى أبى، حدثنا هارون عن إسماعيل من ولد كعب بن مالك، قال: كانت كنية كعب بن مالك فى الجاهلية أبا بشير، فكناه النبى ﷺ أبا عبد الله، ولم يكن لمالك ولد غير كعب الشاعر المشهور، و شهد العقبة و بايع بها، و تخلف عن بدر، و شهد أحداً وما بعدها، و تخلف فى غزوة تبوك » (٤) .

و قال ابن الكلبى : شهد بدراً، كذا قال، وقد صح عن كعب أنه قال:

(١) (٢) اقرأ تاريخ الأدب العربى، لعمر فروخ، وغيره من مؤرخى الأدب العربى.

(٣) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى، ترجمة كعب بن مالك.

(٤) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى.

تخلفت عن بدر ، قال ابن عون عن ابن سيرين : كان ثلاثة من الأنصار يهاجون عن رسول الله ﷺ ، حسان و ابن رواحة و كعب بن مالك (١) .

« أمه ليلى بنت زيد بن ثعلبة من بنى سلمة أيضاً ، شهد العقبة الثانية واختلف فى شهوده بدراً ، و لما قدم على رسول الله ﷺ المدينة آخى بين كعب و بين طلحة بن عبيد الله حين آخى بين المهاجرين و الأنصار » (٢) .

« كان أحد شعراء رسول الله ﷺ الذين كانوا يردون الأذى عنه ، و كان مجوداً مطبوعاً ، قد غلب عليه فى الجاهلية أمر الشعر ، و عرف به ، ثم أسلم و شهد العقبة ، و لم يشهد بدراً ، و شهد أحداً و المشاهد كلها حاشا تبوك فانه تخلف عنها ، و قد قيل إنه شهد بدراً فالله تعالى اعلم » (٣) .

إسلامه : أكرمه الله بالاسلام قبل أن يشهد العقبة و هو فى يثرب وطنه فكان يفقه الدين و يصلى سراً عن قومه ، و لكنه انتهز فرصة خروج قومه من المشركين فى الموسم لكى يبايع رسول الله ﷺ على حمايته و منعه مما يمنع منه عائلته ، و ذلك فى شهر ذى الحجة قبل هجرة النبى ﷺ إلى المدينة المنورة بشهرين و قيل بثلاثة أشهر (٤) .

و لندعه هو يتحدث عن قصة خروجه إلى مكة المكرمة و شهوده بيعة العقبة الثانية ، فى أسلوبه القصصى الرائع ، و أدبه المنثور البليغ ، حتى لا يفوتنا كلامه

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى .

(٢) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر ، القسم الثالث ، ترجمة كعب ابن مالك .

(٣) نفس المصدر ، القسم الثالث ص/ ١٣٢٣-١٣٢٤ .

(٤) إقرأ كتب السيرة النبوية ، و إمتاع الأسماع للمقريزى ، قصة الهجرة بطولها طبع قطر .

المنثور الرفيع قبل الاطلاع على مكانته الشعرية العالية و على شعره القوى الذى تضمن معانى الحرب و المغازى ، و الذى كانت تخاف منه القبائل ، فقد جاء فيما رواه ابن سيرين أن دوساً إنما أسلمت فرقاً من قول كعب بن مالك .

قضينا من تهامة كل وتر و خيبر ، ثم أغمدنا السيوفا

نخبرها و لو نطقت لقالت قواطعهن دوساً أو ثقيفاً (١)

و فى هذه الرواية أن النبى ﷺ استنشد كعب بن مالك و هو راكب ناقته فأنشد البيتين و ما بعدهما من القصيدة بكاملها ، فقال النبى ﷺ « و الذى نفسى بيده لهى أشد عليهم من رشق النبل ، قال ابن سيرين ، فنبئت أن دوساً إنما أسلمت بكلمة كعب هذه (٢) .

حديث خروجه إلى مكة مع البراء بن معرور :

جاء فى السيرة النبوية لابن هشام أن كعب بن مالك قال :

« خرجنا فى حجاج قومنا من المشركين ، و قد صلينا و فقهنا ، ومعنا البراء بن معرور (٣) ، سيدنا و كبيرنا ، فلما وجهنا (٤) لسفرنا ، و خرجنا من المدينة ، قال البراء لنا : يا هؤلاء ، إنى قد رأيت رأياً ، فو الله ما أدرى أتوافقوننى عليه أم لا ؟ قال : قلنا : و ما ذاك ؟ قال : قد رأيت أن لا أدع هذه البنية منى

(١) الاصابة فى معرفة الصحابة للعسقلانى ، ترجمة كعب بن مالك .

(٢) إقرأ هامش دلائل الاعجاز للجرجانى ، طبع بيروت ص / ٤١

(٣) يكنى البراء بن معرور : أبا بشر ، بابنه بشر ، وهو الذى أكل مع رسول الله ﷺ من الشاة المسمومة فمات ، و معرور اسم أبيه ، و معناه : مقصود ، يقال عره و اعتره : إذا قصده ، و البراء هذا ممن صلى رسول الله ﷺ على قبره بعد موته :

(٤) وجهنا : اتجهنا .

بظهر ، يعنى الكعبة ، و أن أصلى إليها ، قال : فقلنا : و الله ما بلغنا أن نبينا ﷺ يصلى إلا إلى الشام (١) و ما نريد أن نخالفه ، قال : فقال : إنى لمصل إليها ، قال : فقلنا له : لكنا لا نفعل ، قال : فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام و صلى إلى الكعبة ، حتى قدمنا مكة ، قال : و قد كنا عنا عليه ما صنع ، وأبى إلا الاقامة على ذلك ، فلما قدمنا مكة قال لى : يا ابن اخى ، انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ ، حتى نسأله عما صنعت فى سفرى هذا ، فانه و الله لقد وقع فى نفسى منه شئ ، لما رأيت من خلافكم إياى فيه ، قال : فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ ، و كنا لا نعرفه ، ولم نره قبل ذلك فلقينا رجلا من أهل مكة ، فسألناه عن رسول الله ﷺ ، فقال : هل تعرفانه ؟ فقلنا : لا ، قال : فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه ؟ قال : قلنا : نعم - قال : و قد كنا نعرف العباس ، كان لا يزال يقدم علينا تاجراً - قال : فاذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس ، قال فدخلنا المسجد فاذا العباس جالس ، و رسول الله ﷺ جالس معه ، فسلمنا ثم جلسنا إليه ، فقال رسول الله ﷺ للعباس : هل تعرف هـذين الرجلين يا أبا الفضل ؟ قال : نعم ، هذا البراء بن معرور ، سيد قومه ، و هذا كعب بن (٢) مالك ، قال : فو الله ما أنسى قول رسول الله ﷺ : الشاعر ؟ قال : نعم ، «قال» : (٢) فقال (له) (٢) البراء بن معرور : يا نبى الله ، إنى خرجت فى سفرى هذا ، وقد هدانى الله للاسلام ، فرأيت أن لا أجعل هذه البنية منى بظهر ، فصليت إليها ، وقد خالفنى أصحابى فى ذاك ، حتى وقع فى نفسى من ذلك شئ ، فماذا ترى يا رسول الله ؟ قال : «قد» (٢)

(١) يعنى بيت المقدس .

(٢) زيادة عن ا - كناية عن النسخة المطبوعة فى ألمانيا سنة ١٢٧٦هـ ط - كناية عن النسخة الخطية بخط القاسم بن زيد المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم وقد فرغ من كتابتها سنة ١١٤٤هـ ، وهى محفوظة بدار الكتب المصرية.

كنت على قبلة لو صبرت (١) عليها ، قال : فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ ، و صلى معنا إلى الشام .

ثم خرجنا إلى الحج ، و واعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق ، قال : فلما فرغنا من الحج ، و كانت الليلة التى واعدنا رسول الله ﷺ لها ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر ، سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا (٢) ، أخذناه معنا ، و كنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا ، فكلمناه و قلنا له : يا أبا جابر ، إنك سيد من ساداتنا ، و شريف من أشرافنا ، و إنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدا ، ثم دعوناه إلى الاسلام ، و أخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة ، قال : فأسلم و شهد معنا العقبة ، و كان نقيباً .

قال فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا

(١) قال السهيلى فى التعليق على هذا الحديث « قوله : لو صبرت عليها ، إنه لم يأمره باعادة ما قد صلى لأنه كان متأولا ، و فى الحديث دليل على أن رسول الله ﷺ كان يصلى بمكة إلى بيت المقدس ، وهو قول ابن عباس ، و قالت طائفة : ما صلى إلى بيت المقدس إلا مذ قدم المدينة سبعة عشر شهراً أو ستة عشر شهراً ، فعلى هذا يكون فى القبلة نسخان : نسخ سنة بسنة ، و نسخ سنة بقرآن ، وقد بين حديث ابن عباس منشأ الخلاف فى هذه المسألة ، فروى عنه من طرق صحاح : إن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بمكة استقبل بيت المقدس ، و جعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس ، فلما كان عليه السلام يتحرى القبلتين جميعاً لم يبن توجهه إلى بيت المقدس للناس حتى خرج من مكة » .

(٢) العبارة « و شريف من أشرافنا » ساقط فى ا .

من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ ، نتسلل تسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ، و نحن ثلاثة و سبعون رجلا ، و معنا امرأتان من نسائنا : نسيبة (١) بنت كعب ، أم عمارة ، احدى نساء بنى مازن بن النجار ، و أسماء بنت عمرو بن عدى بن نابى ، إحدى نساء بنى سلمة ، و هى أم منيع .

العباس يتوثق للنبى عليه السلام :

قال فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله ﷺ ، حتى جاءنا ومعه (عمه) (٢) العباس بن عبد المطلب ، و هو يومئذ على دين قومه . إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه و يتوثق له ، فلما جلس كان أول (٣) متكلم العباس بن عبد المطلب ، فقال : يا معشر الخزرج - قال : وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار : الخزرج ، خزرجها و أوسها - : إن محمداً منا حيث قد علمتم ، و قد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز من قومه و منعة فى بلده ، و إنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، و اللحوق بكم ، فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، و مانعوه ممن خالفه ، فأنتم و ما تحملتم من ذلك ، و إن كنتم ترون أنكم مسلموه و خاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فانه فى

(١) هى امرأة زيد بن عاصم ، و قد شهدت بيعة العقبة و بيعة الرضوان ، كما شهدت يوم اليمامة و باشرت القتال بنفسها ، و شاركت ابنها عبد الله فى قتل مسيلمة ، فقطعت يدها ، و جرحت اثنى عشر جرحاً ، ثم عاشت بعد ذلك دهرا ، و يروى أنها قالت لرسول الله ﷺ : ما أرى كل شئ إلا للرجال ، و ما أرى للنساء شيئاً ! فأنزل الله تعالى : « إن المسلمين و المسلمات » الآية .

(٢) زيادة عن ا ، ط .

(٣) فى ا : أول من تكلم

عز و منعة من قومه و بلده ، قال : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك و لربك ما أحببت .

عهد الرسول عليه السلام على الأنصار :

قال : فتكلم رسول الله ﷺ ، فتلا القرآن ، و دعا إلى الله ، و رغب فى الاسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم و أبناءكم ، قال : فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم ، و الذى بعثك بالحق (نبيا) ، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا (١) ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء (٢) الحروب ، و أهل الحلقة (٣) ورثناها كابراً (عن كابر) (٤) ، قال : فاعترض القول ، و البراء يكلم رسول الله ﷺ ، أبو الهيثم بن التيهان (٥) ، فقال : يا رسول الله ، إن بيننا و بين الرجال حبالا ، و إنا قاطعوها - يعنى اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : بل الدم الدم ، و الهدم الهدم (٦) ،

(١) أزرنا ، أى نساءنا ، والمرأة قد يكنى عنها بالازار ، كما يكنى أيضاً بالازار عن النفس ، و يجعل الثوب عبارة عن لابسه ، قال الشاعر :

رموها بأثواب خفاف فلا ترى لها شبهاً إلا النعام المنفرا

و على هذا يصح أن يحمل قول البراء على إرادة المعنيين جميعاً .

(٢) كذا فى ا ، و فى سائر الأصول : « أهل » .

(٣) الحلقة ، أى السلاح .

(٤) زيادة عن ا ، ط .

(٥) التيهان : يروى بتشديد الياء و تخفيفها .

(٦) قال ابن قتيبة : كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار : دمى دمك ،

أنا منكم و أنتم منى ، أحارب من حاربتم ، و أسالم من سالمتم .

قال ابن هشام : و يقال : الهدم (١) الهدم : (يعنى الحرمة) (٢) أى ذمتى ذمتكم ، وحرمتى حرمتكم (٣) .

قال كعب (بن مالك) :

و قد (كان) قال رسول الله ﷺ : أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيباً ، ليكونوا على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج ، و ثلاثة من الأوس .

شعر كعب فى حصر النقباء :

قال ابن هشام : و أهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التيهان ، و لا يعدون رفاعة ، وقال كعب بن مالك يذكرهم ، فيما أنشدنى أبو زيد الأنصارى :

★ و هدى هدمك ، أى ما هدمت من الدماء هدمته أنا .

و يروى أيضاً : بل اللدم اللدم ، و الهدم الهدم و أنشد :

ثم الحقى بهدى و لدى

فاللدم جمع لادم ، وهم أهله الذين يلتدمون عليه إذا مات ، وهو من لدمت صدرها ، إذا ضربته .

(١) الهدم (بالفتح) : المصدر : (و بالتحريك) كل ما تهدم .

(٢) فى ا : « يقول : حرمتى حرمتكم و دمى دمكم » .

(٣) قال السهيلى : « و إنما كنى ابن هشام عن حرمة الرجل و أهله » بالهدم « لأنهم كانوا أهل نجعة و ارتحال ، ولهم بيوت يستخفونها يوم ظعنهم ، فكلما ظعنوا هدموها ، و الهدم : بمعنى المهدوم ، ثم جعلوا الهدم ، وهو البيت المهدوم ، عبارة عما حوى .

أبلغ أبيا أنه قال رأيه ... وحان غداة الشعب والحين واقع (١)

أبى الله ما منتك نفسك أنه ... بمرصاد أمر الناس راء وسامع

وأبلغ أبا سفيان أن قد بدا لنا ... بأحمد نور من هدى الله ساطع

فلا ترغبن (٢) فى حشد أمر تريده ... والب و جمع كل ما أنت جامع

و دونك فاعلم أن نقض عهودنا ... أباه عليك الرهط حين تتابعوا (٣)

أباه البراء و ابن عمرو كلاهما ... و أسعد يأباه عليك و رافع

و سعد أباه الساعدى و منذر ... لأنفك إن حاولت ذلك جادع (٤)

وما ابن رييع أن تناولت عهده ... بمسلمه لا يطمعن ثم طامع

و أيضاً فلا يعطيكه ابن رواحة ... و إخفاره من دونه السم ناقع (٥)

و فاء به و القوقل بن صامت ... بمندوحة عما تحاول يا فع (٦)

أبو هيثم أيضاً وفى بمثلها ... وفاء بما أعطى من العهد خانع (٧)

وما ابن حضير إن أردت بمطمع ... فهل أنت عن أحموقة الغى نازع

(١) قال : بطل .

(٢) كذا فى أكثر الأصول ، و فى ط : « فلا ترعين » أى فلا تبقين ، يقال ما أرعى عليه ، أى ما أبقى عليه .

(٣) كذا فى ا ، ط . و فى سائر الأصول : « تبايعوا »

(٤) جادع : قاطع .

(٥) الاخفار : نقض العهد .

(٦) اليافع : الموضع المرتفع ، و يروى : « باقع » ، أى بعيد .

(٧) كذا فى أكثر الأصول ، و الخانع : المقر المتذلل ، وفى ط : « خالع » .

وسعد أخو عمرو بن عوف فانه ضروح لما حاولت ملأمر مانع (١)
أولاك نجوم لا يغبك منهم عليك بنحس فى دجى الليل طالع

فذكر كعب فيهم « أبا الهيثم بن التيهان » ولم يذكر « رفاعة » (٢) .

فى غزوة أحد :

و حضر كعب بن مالك فى غزوة أحد مع رسول الله ﷺ و خاص مأزق الحرب و أبلى فيها أحسن بلاء ، و لم يفارق رسول الله ﷺ و ظل معه حتى فى أصعب أوقات الحرب و أشدها بلاءآ ، و لما انتقضت صفوف المسلمين فى المعركة ، و وقعت الهزيمة انتهز الفرصة ابليس الذى نادى عند جبل عينين (٣) إن محمداً قد قتل ، و صرخ ثلاث صرخات أدهشت المسلمين ، و أفقدتهم الثقة بالنصر ، و اضطرب الأمر و وقع القتل و الصياح ، و قتل مصعب بن عمير و بيده اللواء ، و تفرق المسلمون فى كل وجه و أصعدوا فى الجبل لما نادى الشيطان : قتل محمد ! فكان أول من بشرهم برسول الله ﷺ سالماً كعب بن مالك ، فجعل يصيح ورسول الله ﷺ يشير إليه بأصبعه على فيه : أن أسكت ، ودعا بلأمة كعب وكانت صفراء فلبسها ، و نزع لأمته فلبسها كعب ، و قاتل كعب حتى جرح سبعة عشر جرحاً لشدة قتاله (٤) .

(١) ضروح أى مانع و دافع عن نفسه .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام - قصة العقبة الثانيـة طبع مصر . ج ٢ / ص ٨١ - ٨٢ - ٨٣ - ٨٤ - ٨٧ - ٨٨ .

(٣) أحد جبال أحد عينين و يقال ليوم أحد « يوم عينين »

(٤) إمتاع الاسماع للمقريزى ، حديث غزوة أحد طبع قطر ١٢٩ .

اسهامه فى حفر الخندق مع رسول الله ﷺ :

و فى غزوة الخندق لما وكل رسول الله بكل جانب من الخندق قوماً يحفرونه جعل لبنى سلمة ناحية يحفرونها و يرتجزون و كان الحماس يغلب القوم بأجمعهم حتى إذا رأوا فتوراً من أحد ضحكوا منه ، و كان سلمان رضى الله عنـه قوياً عارفاً بحفر الخنادق فتنافس فيـه المسلمون ، و كان يعمل عمل عشرة رجال ، فجعل له رسول الله ﷺ خمس أدرع طولا وخمساً فى الأرض ففرغها وحده وهو يقول :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة .

وكان رسول الله ﷺ يحمل التراب فى المكاتل و القوم يرتجزون ، و رسول الله ﷺ يقول :

هذا الجمال لا جمال خيبر هـذا أبر ربنا و أطهر

و كان كعب بن مالك مع بنى سلمة فى ناحية يحفر و يرتجز فعزم رسول الله ﷺ على كعب بن مالك ألا يقول شيئاً و لعل ذلك يكون لمصلحة حربية تقتضى فى ذلك الوقت ألا يرتجز هو (١) .

و مع إسهامه فى حفر الخندق عملياً وفق إلى صنع قصائد من الشعر فى هذه المناسبة ، كان لها تأثير كبير فى نفوس الناس العاملين فى الخندق ، و سنذكرها حيث نتحدث عن شعره بحول الله تعالى .

فى فتح مكة : لما آذن الرسول ﷺ بالرحيل إلى مكة للفتح صحبه كعب بن مالك ، وسار مع القوم حتى إذا نزل بالعرج فى طريقه إلى مكة والناس لا يدرون أين يتوجه أ إلى قريش أو إلى هوازن أو إلى ثقيف! وأحبوا أن يعلموا ، أتى كعب ابن مالك رسول الله ﷺ و قد جلس فى أصحابه و هو يتحدث ليعلم ذلك فأنشده شعراً ، فتبسم و لم يزد على ذلك (٢) .

(١) المصدر السابق .

(٢) إمتاع الأسماع للمقريزى حديث فتح مكة بطوله ص ٣٦٥ .

إسلام أبى سفيان بن الحارث :

ولما وصل رسول الله ﷺ إلى الأبواء فى طريقه إلى فتح مكة جاءه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يريد الاسلام بعد ما عادى رسول الله ﷺ عشرين سنة و هجاه أقذع هجاء و لم يتخلف عن قتاله قط ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ و أعرض عنه الناس و تجهموا له فجلس على باب منزل رسول الله ﷺ يلازمه حتى فتح مكة وهو لا يكلمه ولا أحد من المسلمين ، ولكنه فى يوم هوازن أخذ بلجام بغلته ﷺ من جانب و معه العباس بن عبد المطلب الذى شفع له و قال : أخوك و ابن عمك أبو سفيان بن الحارث فارض عنه أى رسول ﷺ قال قد فعلت ، فغفر الله له كل عداوة عاداناها ، فقبل أبو سفيان رجله فى الركاب .

موقف كعب بن أبى مالك من هجاء أبى سفيان قبل إسلامه :

وهذا هو أبو سفيان بن الحارث الذى رد عليه شعراء الاسلام ، و واجهوا هجاءه بالهجاء و التعيير ، و هو الذى عيره حسان بن ثابت و قال :

أتهجوه و لست له بكفء فشركما لخيركما الفداء (١)

و لما قيل لرسول الله ﷺ : إن أبا سفيان بن الحارث عبد المطلب يهجوك يا رسول الله و طلب منه عبد الله بن رواحة أن يأذن له فى الرد عليه ، وثب كعب بن مالك أمام رسول الله ﷺ ، و قال يا رسول الله ائذن لى فيه (٢) .

غزوة تبوك و كعب بن مالك :

و جاء موعد غزوة تبوك فى رجب سنة تسع و قد بلغ رسول الله ﷺ أن الروم جمعت جموعاً كثيرة لقتال المسلمين فأمر أصحابه بالتهيؤ لغزوهم ، و ذلك

(١) أنظر كتب السيرة و إمتاع الأسماع للمقريزى .

(٢) اقرأ ترجمة كعب بن مالك فى الأغانى للاصفهانى ج ١٥/ .

فى زمان من عسرة الناس وشدة الحر ، و جدب من البلاد ، و حين طابت الثمار وشق على الناس الخروج إلى غزو أو قتال ، و لذلك فقد تخلف فى هذه الغزوة رغم خطورتها كثير من الناس منهم البكاؤن الذين قال لهم رسول الله ﷺ : لا أجد ما أحملكم عليه ، فولوا يبكون وهم سبعة ، ومنهم المنافقون ، وهم بضعة وثمانون رجلا ، و منهم من تخلفوا من غير شك و لا ارتياب و قد أبطأت بهم النية ، و فى مقدمتهم كعب بن مالك الأنصارى ، و معه هلال بن أمية الواقفى ، ومرارة ابن الربيع العمروى ، وقد تحدث عنهم القرآن فقال : وعلى الثلاثة الذين خلفوا» (١).

و قد روى البخارى فى صحيحه حديث كعب بن مالك و قد تحدث فيه عن تخلفه بلغة صريحة وأسلوب واضح قصصى جميل ، يقول .

« كان من خبرى أنى لم أكن قط أقوى و لا أيسر حين تخلفت عنه فى تلك الغزاة ، و الله ما اجتمعت عندى راحلتان قط حتى جمعتهما فى تلك الغزاة و لم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد و استقبل سفراً بعيداً و مفازاً و عدواً كثيراً فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذى يريد ، و المسلمون مع رسول الله ﷺ كثير و لا يجمعهم كتاب حافظ يريد « الديوان ، قال كعب : فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى له ما لم ينزل فيه وحى الله ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال و تجهز رسول الله ﷺ و المسلمون معه فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع و لم أقض شيئاً فأقول فى نفسى و أنا قادر عليه فلم يزل يتمادى بى حتى اشتد بالناس الجد فأصبح رسول الله ﷺ و المسلمون معه و لم أقض من جهازى شيئاً فقلت أتجهز

(١) اقرأ كتب السيرة و المغازى ، و سيرة ابن هشام .

بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت و لم أقض شيئاً ثم غدوت فرجعت و لم أقض شيئاً فلم يزل بى حتى أسرعوا و تفارط الغزو و هممت أن أرتحل فأدركهم و ليتنى فعلت فلم يقدر لى ذلك فكنت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزننى أنى لا أرى إلا رجلا مغموصاً عليه النفاق أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء .

قال كعب بن مالك : فلما بلغنى أنه توجه قافلا حضرنى همى وطفقت أتذكر الكذب و أقول بماذا أخرج من سخطه غداً ؟ و استعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى .

فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عنى الباطل و عرفت أنى لن أخرج منه أبداً بشئ فيه كذب فأجمعت صدقه وأصبح رسول الله ﷺ قادماً فجئته ، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال تعال فجئت أمشى حتى جلست بين يديه فقال لى ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ فقلت بلى إنى : و الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر و لقد أعطيت جدلا و لكنى و الله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على و لئن حدثتك حديث صدق تجد على فيه إنى لأرجو فيه عفو الله .

لا والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك ، فقال رسول الله ﷺ ، أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك ، فقمت وسار رجال من بنى سلمة فاتبعونى فقالوا لى : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا و لقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلفون ، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك فوالله مازالوا يؤنبونى

(أى يلومونى أشد اللوم) حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى ثم قلت لهم هل لقى هذا معى أحد قالوا نعم رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك فقلت : من هما ، قالوا مرارة بن الربيع العمرى وهلال بن أمية الواقفى ، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدوا بدراً فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لى ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة (بالرفع بمعنى الاختصاص أى متخصصين من بين سائر الناس) من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس و تغيروا لنا حتى تنكرت فى نفسى الأرض فما هى التى أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباى فاستكانا و قعدا فى بيوتهما يبكيان ، و أما أنا فكنت أشب القوم و أجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين و أطوف فى الأسواق و لا يكلمنى أحد و آتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه و هو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى هل حرك شفتيه بالسلام على أم لا ثم أصلى قريباً منه فأسارقه النظر فاذا أقبلت على صلاتى أقبل إلى و إذا التفت نحوه أعرض عنى حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة و هو ابن عمى و أحب الناس إلى فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام فقلت يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناى و توليت حتى تسورت الجدار ، قال فبينا أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطى من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءنى دفع إلى كتاباً من ملك غسان فاذا فيه :

« أما بعد فانه قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك و لم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك ، فقلت لما قرأتها وهذا أيضاً من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرته بها ، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ

يأتيني فقال إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت أطلقها أم ماذا أفعل قال لا بل اعتزلها و لا تقربها .

فلبثت بعد ذلك عشر ليال كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا ، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله قد ضاقت على نفسى و ضاقت على الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته :

يا كعب بن مالك أبشر ، قال فخررت ساجداً و عرفت أن قد جاء فرج ، و آذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر . فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون و ركض إلى رجل فرساً و سعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوته إياهما ببشراه ، و الله ما أملك غيرهما يومئذ و استعرت ثوبين فلبستهما .

و انطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقانى الناس فوجاً فوجاً يهنؤنى بالتوبة يقولون : لتهنك توبة الله عليك ، قال كعب حتى دخلت المسجد فاذا برسول الله ﷺ جالس حوله الناس فقام إلى طلحة بن عبد الله يهرول حتى صافحنى و هنأنى ، و الله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره و لا أنساها لطلحة .

قال كعب فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ و هو يبرق وجهه من السرور ، أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ، قال قلت أ من عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال لا بل من عند الله .

وأنزل الله على رسول الله ﷺ « لقد تاب الله على النبى و المهاجرين ، إلى قوله و كونوا مع الصادقين » فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هدانى للاسلام أعظم فى نفسى من صدقى لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك

كما هلك الذين كذبوا ، فان الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شرما قال لأحد ، فقال الله تبارك وتعالى : « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم ، إلى قوله ، فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » (١) .

هذا نموذج من كلامه يدل على علو كعبه فى الأدب المنثور البليغ و اقتداره على البيان المؤثر الأخاذ و الأسلوب القصصى البديع مع ما كان له من مكانة عالية فى الشعر لا يدانيه فيه كثير من شعراء العرب ، و قد غلب عليه فى الجاهلية أمر الشعر و عرف به فلما أسلم كان شاعر الاسلام و شاعر النبى عليه السلام .

كعب بن مالك يسأل رسول الله ﷺ عن رأيه فى الشعر :

و قد روى أن كعب بن مالك قال : يا رسول الله ماذا ترى فى الشعر ؟ فقال رسول الله ﷺ : المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، قال أبو عمر ، و قال رسول الله ﷺ لكعب بن مالك : أترى الله عز و جل شكر لك قولك .

زعمت سخينة أن ستغلب ربها فليغلبن مغالب الغلاب

هذه رواية محمد بن سلام الجمحى ، وفى رواية ابن هشام قال لما قال كعب بن مالك .

جاءت سخينة كى تغالب ربها فليغلبن مغالب الغلاب

قال رسول الله ﷺ : لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا (٢) .

و لكعب بن مالك شعر جيد ، وقصائد غراء قالها فى الاسلام وفى مناسبات المغازى التى شهدها بوجه خاص .

و سنتحدث عن شعره و مكانته فيه ، و عن خصائصه الأدبية و الكلامية فيما رواه المؤرخون من قصائده الغراء ، وذلك فى الحلقات القادمة باذن الله تعالى .

[يتبع]

(١) صحيح البخارى ، كتاب المغازى ، حديث كعب بن مالك .

(٢) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر ج ٣/ ص ١٢٥ .

من بحوث الندوة العالمية للأدب الاسلامى :

الأدب الاســـــــلامى
فى تراثنا التاريخى و الجغرافى

الأستاذ الدكتور فتحى عثمان مدير البحوث (سابقاً)
-(الحلقة السابعة)- بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
رئيس تحرير مجلة « العربية » (Arbia)

أدب البلدان و الرحلات فى تراثنا الاسلامى :

حفل تراث الفكر الاسلامى بمؤلفات مبرزة فى (البلدان) و (المسالك و الممالك) تقدم معلومات جغرافية عامة عن العالم المعروف وقتذاك ، منها كتابان يحملان اسم (البلدان) لليعقوبى (المتوفى ٢٨٤هـ) وابن الفقيه الهمذانى (المتوفى فى أواخر القرن الثالث الهجرى فضلا عن (تقويم البلدان) لأبى الفداء (ت٧٣١هـ) و ثلاثة كتب تحمل اسم (المسالك و الممالك) لابن خرداذبة (المتوفى ٣٠٠هـ) و الاصطخارى (المتوفى فى القرن الرابع الهجرى) و البكرى (المتوفى ٤٨٧هـ) . هذا إلى جانب كتاب قد يحمل اسم (المسالك والممالك) أو اسم (صورة الأرض) لابن حوقل (المتوفى ٣٨٠هـ) . وإلى جانب ذلك هناك كتب فى البلدان تحمل أسماء أخرى مثل (الأعلاق النفيسة) لابن رسته (المتوفى فى أوائل القرن الرابع الهجرى) ، و (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) للمقدسى (المتوفى ٣٨٧هـ) ، و (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) للادريسى (المتوفى ٥١٠هـ) ، وجمع المسعودى فى كتابه (التنبيه و الاشراف) معلومات جغرافية و تاريخية ، و لكن نصيب الأولى فيه أكبر .

و من المصنفات الجغرافية فى المكتبة الاسلامية ما عنى بقطر واحد - على نحو ما عنيت مصنفات تاريخية بتاريخ قطر واحد ، ومنها كتاب الهمذانى (المتوفى ٣٣٤هـ) (صفة جزيرة العرب) ، و قد كتب المهلبى (المتوفى ٣٨٥هـ) كتاباً

فى جغرافية السودان للخليفة الفاطمى العزيز بالله عام ٣٧٥هـ واعتمد عليه ياقوت الحموى فى معجمه فيما بعد ، و كتب البيرونى (المتوفى ٤٤٠هـ) تحفته (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة) و هو كتاب يحوى معلومات جغرافية و تاريخية و اجتماعية و دينية .

و عنى البعض بتصنيف معاجم للعالم الجغرافية من جبال و بحار و بحيرات وأنهار ومدن وما إليها ، منها (معجم ما استعجم) للبكرى (المتوفى ٤٨٧هـ) ، و (معجم البلدان) لياقوت الحموى (المتوفى ٦٢٦هـ) و قد استخلص مادته الجغرافية واختصرها صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى (المتوفى ٧٣٩هـ) فى كتاب أسماه (مراجع الاطلاع فى أسماء الأمكنة والبقاع) ، و صنف الحميرى (المتوفى بعد ٨٦٦هـ) كتابه (الروض المعطار فى خبر الأقطار) .

وقد تضمنت بعض الموسوعات العربية معلومات جغرافية إلى جانب ما اشتملت عليه من مادة تاريخية و أدبية و غيرها ، و فى مقدمة هذه (نهاية الأدب فى فنون الأدب) للنويرى ، و (مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار) لابن فضل الله العمرى (المتوفى ٧٤٨هـ) ، و (صبح الأعشى فى صناعة الانشاء) للقلقشندى (المتوفى ٨٢١هـ) .

و من الكتب ما اتجه إلى الوصف الجغرافى و الطبوغرافى للمدن ، و هو يجمع إلى ذلك معلومات تاريخية و أثرية ، و قد عرف ذلك النوع من التأليف بكتب (الخطط) و كتاب المقريزى (المتوفى ٨٤٥هـ) فى هذا الباب معروف مشهور و اسمه الكامل (المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار) .

و ازدهر أدب الرحلات فى المكتبة الاسلامية ، و من عوامل ذلك رحلة الحج أحد الأركان الخمسة للاسلام من جهة ، و وحدة أرض الاسلام فى كل المسلمين فى مختلف العصور مهما كانت التخوم والحواجز الطبيعية والسياسية من جهة أخرى ، و القرآن الكريم تشير آياته فى تقدير إلى الهجرة فى سبيل الله و الانتشار فى الأرض لأجل أى مصلحة مشروعة ، وهكذا تنتقل التجارة و المجاهدون و طلاب

المعرفة و دعاة الاسلام و ذوو الجاه فى أرجاء أرض الاسلام دون عوائق ، « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها و كلوا من رزقه و إليه النشور » (الملك ١٥) ، « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيرة وسعة » (النساء / ١٠٠) ، « و آخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله و آخرون يقاتلون فى سبيل الله » (المزمل / ٢٠) ، « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض و ابتغوا من فضل الله » (الجمعة / ١٠) ، و قد تجمع المعلومات المستمدة من الرحلات فى كتاب يعرضها عرضاً موضوعياً ولا يتابع وقائع الرحلة حسب ترتيبها الزمنى ، و من ذلك ما كتبه المسعودى و المقدسى ، و لكن هناك من ساق وقائع رحلته والمعلومات التى عرضت له فيها فى شكل وصف للرحلة ذاتها ، ومن كتب الرحلات هذا الكتاب المنسوب لسليمان السيرافى (أخبار الصين والهند) ، و كتاب الرحالة الفارسى بزرك بن شهريار (عجائب الهند) و يرجع لمنتصف القرن الرابع الهجرى ، و قد أوفد الخليفة المقتدر العباسى إلى ملك البلغار بالفلجا أحمد بن عباس بن رشيد المعروف بابن فضلان ، و دون هذا وصفاً لرحلته اعتمد عليه المسعودى و الاصطخارى و ياقوت ، و إلى جانب ذلك نجد رحلة الرحالة الفارسى الشيعى ناصر خسرو (المتوفى ٤٨١هـ) و قد كتبها بالفارسية و عنوانها (سفر نامه) أى زاد المسافر ، و رحلة الهروى (المتوفى ٦١١هـ) التى ضمنها كتابه (الاشارات إلى معرفة الزيارات) ، ورحلة عبد اللطيف البغدادى (المتوفى فى القرن السابع الهجرى) و التى أسماها (الافادة و الاعتبار فى الأمور المشاهدة و الحوادث المعاينة بأرض مصر) ، ثم رحلة ابن جبير (المتوفى ٦١٤هـ) ، والرحلة المغربية للعبدرى (المتوفى فى أواخر القرن السابع الهجرى) ، ورحلة ابن بطوطة (المتوفى ٧٧٠هـ) التى سماها (تحفة النظار فى غرائب الأمصار و عجائب الأسفار) .

« يتبع »

المجلة المجاهدة

عبد الله عبد الغنى خياط
عضو هيئة كبار العلماء و الخطيب فى المسجد الحرام

[تلقينا هذه الخاطرة الفياضة التى بعثها إلينا سماحة الشيخ عبد الله الخياط خطيب المسجد الحرام من البلد الأمين ، بيد الشكر و التقدير ، وهى تصور انطباعاته الكريمة نحو مجلة البعث الاسلامى التى يتابع قراءته باهتمام بالغ .

و نحن إذ نشكر سماحته على هذه لروح الشفافة و الشعور النبيل ندعو الله سبحانه و تعالى أن يكرمنا بالتوفيق و القبول]

[التحرير]

الجهاد كما يكون بالسيف و السنان و كل وسائل الكفاح المادى من قاذفات قنابل و دبابات وما إلى ذلك مما يقصد به التغلب على العدو وكسب المعركة ، يكون أيضاً بالحجة و البرهان - و الحجة و البرهان تختلف فيهما الوسائل و الدروب ، فكما تكون الحجة و البرهان بالنصوص من الوحيين و صنيع الصدر الأول والصفوة من خيار الخلق فى القرون المفضلة تكون أيضاً بمقالات تنشر و ندوات تعقد و إذاعات تشيع الحق و تدحض الباطل ،

هذه مقدمة أكتبها بمناسبة طلوع شمس العدد الثالث من المجلد الثامن والعشرين من مجلة البعث المجاهدة - و أنعت هذه المجلة بالمجاهدة ، لأنها طيلة أيام بل أعوام صدورها منذ أن أنشأها مؤسسها الأستاذ محمد الحسنى رحمه الله عام ١٣٧٥هـ حتى الآن وهى سائرة فى جهادها ماضية على المخطط الاسلامى المرسوم لها لم تعقها العواصف الهوج إذ تهب عليها ، ولا الأغراض السياسية التى كثيراً ما تعرقل السير بسيطرتها ، و لا المصالح النفعية التى هى الهدف المنشود من وراء الاصدارات للمجلات أو الصحف ، و حتى الكتب لم يحل ذلك دون صدورها أو التقليل من

خدماتها العلمية ، و ذلك رغم ضعف إمكاناتها المادية و عدم وفرة عدتها فى النشر و التصريف — اقرأ اليوم عدد شهر ذى القعدة (١٤٠٣هـ) و قد وصلنى يوم ١٥ / ١٠ / أى قبل الموعد لصدوره بفترة طويلة — و أقرأ (أول ما أقرأ) الكلمة التى تصدر بها المجلة عادة تحت عنوان (أخى المسلم) ثم تفرع من هذه الاخوة فتقول : أخى فى العقيدة — أخى على درب الايمان والجهاد — أخى فى النضال و الكفاح و التضحية والفداء — أخى فى الحق و الصبر — أخى فى مهبط الوحى و منبع الصبح الصادق فى ليل الانسانية الغاسق إلى آخر ما تفرع فيه عن أخوة الاسلام ، و إنها لعبارات مؤثرة تستهض الوجدان فى كل مسلم غيور صادق مخلص لاسلامه ثم أقلب صفحاتها فأجد العلم الغزير و التوجيه الاسلامى يترجم عنه مقال بعنوان (محاولة جديدة فى التشكيك فى صحة ما اتفق عليه الشيخان) ثم تحدثك المجلة فى أبحاثها وعن طريق علمائها و كتابها الأفاضل عن مقدمة المصفى شرح الموطأ - و عن آراء الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى فى التشريع الاسلامى ثم تنقلك إلى بحوث عالمية للادب الاسلامى تحت عنوان (الأدب الاسلامى فى تراثنا التاريخى و الجغرافى) ثم دراسات خاصة بالشعر المخضرم تحت عنوان أدب المخضرمين فى تاريخ آداب اللغة العربية ، ثم تنقلك إلى بحث التضامن الاسلامى فى العصر الحديث ضرورته و وسائله ثم تنقلك إلى صور و أوضاع للحضارة تحت عنوان - ملهاة جديدة فى الحضارة المعاصرة ، ثم إلى موضوع : تركيا بالاسلام - و تركيا بدون الاسلام ، و فى طليعة المواضيع البحث القيم تحت عنوان غاية التعليم و التربية فى العالم الاسلامى و منهاجه لسماحة الداعية لاسلامى السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى ، وموضوع التكافل الاجتماعى فى الاسلام ، و كلها أبحاث جديرة أن يضمها كتاب لتخليدها و إتساع أبعاد الانتفاع بها - فكيف و لم لا تكون هذه المجلة (البعث الاسلامى) كما نعتناها بالمجلة المجاهدة - زد على ما تضمه من أبحاث علمية

وصولها هدايا وللمشتركين قبل شهر صدورها ، فعدد ذى القعدة يقرأ فى المملكة العربية السعودية فى منتصف شهر شوال — إن وراء ذلك السر الذى لم ينكشف يضن به أرباب المجلة و القائمون عليها من الكشف ليكون بينهم و بين الله يجزيهم عليه الجزاء الأوفى — لقد كان فى مقدمة ما عنى به الاسلام فى بنوده الأولى الدعوة إلى الله على هدى و بصيرة كما قال تعالى (قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بصيرة أنا و من اتبعنى) و هذه المجلة (البعث الاسلامى) يتجسد فيها هذا الغرض و يترجم عنه هذه البحوث الاسلامية والتوجيهات الهادفة إنها دعوة إلى الله فى مختلف الطرق و الاتجاهات ، أ فنكون مجانبين للواقع لو نعتناها بالمجلة المجاهدة بعد هذا كله ؟ ؟ .

كم تمنيت أن يكون لى شرف الانتماء إليها و الاندماج فى سلك كتابها المتعاونين معها لأودى واجباً إسلامياً هو بالنسبة لى كطالب علم وموجه فى الطليعة و لكنى كثيراً ما تصرفنى الظروف بل الواجبات الاسلامية الأخرى من خطابة و كتابة و إذاعة و وظيفة عن واجب الانضمام إلى كتاب مجلة البعث الاسلامى ، لذا أجد الكفارة عن ذلك بكتابة أمثال هذه النبذ فى الفينة بعد الأخرى كلما شعرت تأنيب الضمير و وخز الألم فى نفسى لعدم تمكنى من المشاركة فى الكتابة للمجلة المجاهدة .

إننى أبارك خطواتها المسددة الموفقة العظيمة الهادية فى خدمة الاسلام والدعوة إلى الله على هدى و بصيرة و إعلان الحق و لو كره الشانئون و دحض الباطل و أدعو الله مخلصاً من جوار الكعبة و فى حرم الله أدعو الله للقائمين بأمرها و المتولين للتحرير فيها و لكل من أسهم فى خدمتها بأى وسيلة أن يجزيه الله خير ما يجزى به المحسنين من عباده ، إنه أكرم مسئول وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد الهادى البشير و على آله و صحبه .

صور و أوضاع :

الأحوال الشخصية للمسلمين و أدعياء الاصلاح

واضح رشيد الندوى

تسمع بين حين لآخر أصوات شاذة للاصلاح فى الأحوال الشخصية ، وعادة ترتفع هذه الأصوات من غير المسلمين الذين يطالبون بتنفيذ قانون موحد للاحوال الشخصية فى الهند يستوى فيه المسلمون و الهندك والمسيحيون ، و لا يهدفون من ورائه إلا إلى إخضاع المسلمين كليا للقانون الوضعى ، حتى فى أمور تتعلق بالعقيدة الدينية ، كالزواج و الأرث و التبنى ، و حقوق المرأة ، و أمور أخرى .

و لكن المسلمين عارضوا دائماً كل محاولة ، و شكلوا مجلسا لرعاية الأحوال الشخصيه و صيانتهـا من التدخل ، وقد أكدت الحكومة مراراً أنها لن تتدخل فى هذه المسألة إلا إذا كانت المطالبة بالاصلاح من المسلمين أنفسهم .

و قد لجأ المطالبون بالاصلاح إلى وسيلة جديدة وهى جذب بعض المسلمين الذين يشغلون مناصب رسمية ، أو لهم مطامع سياسية أو من لا يميز بين الاسلام وغيره ولا يعرف شيأ منه لنشأته غير الاسلامية ، و عدد مثل هؤلاء المسلمين غير قليل و يوجد فى كل بلد إسلامى من خريجى المدارس الغربيـة و تلامذة المستشرقين و الشيوعيين ، فيتقدم هؤلاء المسلمون بمطالب الاصلاح ، بدعوى مكافحـة تخلف المسلمين ، و إشراك المرأة فى الحياة بجانب الرجل ، و يحاولون أن يثبتوا أنهـا مطالبة المسلمين .

و فى هذه الطائفة التى تحارب ما تصفه بالتزمت أو الرجعية ، أو سلطة العلماء ، رجال مخدوعون ، و رجال ليست لهم شعبية فى المسلمين ، و ليست لهم معرفـة بالمسلمين فضلا عن الاسلام .

و قد انكشفت نوايا هؤلاء الاصلاحيين فى مؤتمرين عقدا أخيراً ، أحدهما فى عليجراه ، و آخر فى دلهى ، للاصلاح فى الأحوال الشخصية و لم يحضر هذين المؤتمرين عدد وجيه من المسلمين و لا أصحاب معرفة بالاسلام و المسلمين ، فكان من بينهم ، المستر حميد الله بيج ، رئيس لجنة الأقليات وأحد قضاة الهند ، وبعض الأساتذة الجامعيين من أصحاب الميول الاشتراكية ، وعدد من غير المسلمين ، والقيت تحليلات ودراسات مزعومة عن أحوال المسلمين ، وطالب المتحدثون بتغيير ما وصفوه بالاسلام القرآنى ، و بالثورة على سلطة العلماء و فتح مجال تشريع الاسلام للجميع ويبدو سوء نية المتحدثين من تصريح المستر بيج ، أن التخلف الأقتصادى للمسلمين سيبقى ما دام المسلمون متمسكين باسلام العهد القديم .

و أثار المتحدثون التهم القديمة كتعدد الأزواج ، و حقوق المرأة ، والنظام العائلى للمسلمين ، و هاجموا التعليم الدينى وطالبوا بقبول الحضارة الغربية و التصور الغربى للحياة .

وتحدث فى اجتماع عليكراه ، السيد حامد نائب رئيس الجامعة الاسلامية ، والدكتور اشتياق حسين قريشى ، وغيرهم من رجال الفكر السليم وقدموا دراستهم ، لكن منظمى الاجتماع لم يدخلوا تصورهم فى مقررات المؤتمر ، كما قاطعت الصحافة تصريحاتهم لأنها كانت فى الدفاع عن الاسلام .

و كان مؤتمر دلهى صدى لحملة تحرير المرأة المسلمة التى يتزعمها أخيراً المستر رفيق زكريا ، و أسرته ، وقد كتب السيد رفيق زكريا ، أخيراً عدة مقالات فى

الصحافة الانجليزية عن موقف المرأة فى الاسلام حسب تصوره ، فكانت هذه المقالات سبباً للهجوم على العلماء والمتحفظين ، وصدرت مقالات ورسائل تعليقاً عليها .

و فى مؤتمر دلهى الذى حضره أدعياء الاصلاح الذين لا يقبلهم المجتمع الاسلامى ، و لا يعرفهم المسلمون لأن معظمهم سياسيون أو مثقفون ثقافة غربية ، طالب المتحدثون باخراج المرأة المسلمة من البيت و تغيير النظام العائلى للمسلمين ، وهاجموا العلماء ورفضوا الاسلام و القرآن ولما تكلم بعض العلماء الذين اشتركوا فى المؤتمر كالأستاذ شهاب الدين الندوى كان كلامهم موضع سخرية و استهزأ أحدهم بالحديث الشريف ، والآيات القرآنية .

كانت مأساة المسلمين فى العصر الحديث أن أعداء المسلمين نجحوا فى شراء بعض العقول من بين المسلمين للتحريف فى الاسلام و كان فريسة لهذه المؤامرة المتخرجون من الجامعات و المثقفون بالثقافة الغربية الذين يدعون أنهم يمثلون المسلمين ، و يستغل المغرضون هذه الأصوات لتحقيق مآربهم ، و يبدو أن أعداء الاسلام يسلكون نفس الأسلوب لتحقيق هدف تغيير الأحوال الشخصية ، للمسلمين فى الهند بعد ما أخفقوا فيه لمعارضة العلماء .

الأحداث الدامية فى « سرى لنكا »

ثار هياج فى الهند إثر الأحداث الدامية فى سرى لنكا و خاصة فى جنوب الهند ، المنطقة التى ينتمى إليها الناطقون بالتامل ، و ينحدر التاميليون الذين يشكلون الأقلية اللغوية و الثقافية فى سرى لنكا ، من أصل هندى ، و ينطقون لغة تامل ، و هى اللغة الوطنية لجنوب الهند ، و خاصة تامل نادو (مدراس سابقاً) .

و طالب بعض الزعماء فى الجنوب بإرسال قوات هندية لمساعدة التاميليين ،

كما طالب آخرون بإثارة المسألة فى الأمم المتحدة ، و إرسال قوات الأمن من الأمم المتحدة ، لكن حكومة الهند المركزية لازمت تحفظاً نوعاما لأسباب سياسية .

لا شك أن الحوادث التى حدثت فى « سرى لنكا » كانت مؤسفة و محزنة لكل من يحمل الضمير الانسانى ، و تستحق أن تدان ، و لكن التناقض الغريب فى موقف المحتجين على الأحداث فى سرى لنكا التى قتل فيها مآت من التاميليين ، و الأحداث التى وقعت فى عدد من مدن الهند نفسها ، التى قتل فيها آلاف من المواطنين من طبقة واحدة ، كان يبعث على دهشة و استغراب .

لقد أصبحت عادة الصحافة الهندية أنها فى كل اضطراب طائفى فى الهند تحمل الأقليات مسئوليتها وتبرر موقف الشرطة و القوات المسلحة فى الوسائل الاستبدادية ، و تبحث عن تورط القوى الخارجية فى أحداث الاضطرابات كما تعتبر أصوات الاحتجاج فى الخارج ، من المحبين و الاخوان للضعفاء ، بأنها تدخل فى شئون الهند الداخلية . كما حدث فى « آسام » و « مراد آباد » ، و لكن الصحافة الهندية فى أحداث سرى لنكا تركت كل تحفظاتها ، و ذهبت إلى حد التدخل السافر لمساعدة التاميليين ، و تأييد حركة ، لا يختلف أحد فى اعتبارها حركة الانفصال ، و لم يسمع صوت واحد ينصح التاميليين بأن ينضموا إلى التيار القومى فى سرى لنكا و يتعايشوا مع الأغلبية ، و يتخلوا عن لغتهم و ثقافتهم التى هى لغة و ثقافة بلد خارجى ، و ينبذوا ولاءهم لبلد خارجى ، و قد أظهرت هذا الجانب الصحافة الاسلامية فى الهند ، ولفتت الانتباه إلى هذا التناقض .

العلامة الشيخ محمد طيب القاسمى فى ذمة الله

[تلقى المسلمون فى الهند وخارجها على السواء نبأ وفاة العلامة الشيخ محمد طيب رئيس دار العلوم ديوبند بحزن و ألم كبيرين ، فانا لله و إنا إليه راجعون ، و رغم أن الحادث لم يكن مفاجئاً بل كان متوقعاً بالنسبة إلى انحراف صحته و مرضه الذى كان يعانى منه منذ أمد غير قصير مع تقدم عمره ، إلا أن الحادث قد حمل فى طيه معانى كبيرة من الخسائر العلمية والدينية والتربوية بالنظر إلى شخصيته الكبيرة التى لها منة دينية عظيمة على أوساط العلم و الدين فى هذه البلاد ، فقد قام الفقيد بتربية وتخريج أجيال من العلماء و استطاع أن يزيد فى تاريخ الهند العلمى و الدينى صفحة مشرقة من جلائل أعماله ، و قد شغل منصب رئاسة دار العلوم ديوبند لأكثر من نصف قرن تمكن من خلال ذلك من أداء دور بناء فى مجال تعليم الدين و تربية المسلمين فى الهند بصفة خاصة فجزاه الله عن الاسلام و المسلمين خيراً .

وفيما يلى بيان لسماحة مولانا الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى أدلى به أثر وفاة العلامة الشيخ محمد طيب ، و قام بتعريبه الأخ محمد أكرم الندوى ، ننشره للاهمية] . [التحرير]

فجع المسلمون فى الهند بوفاة العالم الربانى الجليل الشيخ محمد طيب القاسمى رئيس دار العلوم بديوبند سابقاً ، فقد انتقل إلى رحمة الله تعالى فى ٦/ شوال ١٤٠٣هـ

عن عمر يناهز ٨٧ سنة و كان فضيلته يعانى من المرض منذ مدة ، كما أن الحوادث الأخيرة من حياته زادته ضعفاً و نحافة و وهنا على وهن ، فلم يكن حادث وفاته المفجع مفاجئاً ، و لكن بالنظر إلى شخصيته الفذة وفضائله وخدماته الدينية والعلمية المنوعة الواسعة ، و إلى صلتى المتوثقة معه صدمنى نعيه الذى نشرته الجرائد وهز قلبى هزة عنيفة ، كأنه حادث مفاجئ لم يكن متوقعاً .

الواقع أن الشعبية و القبول ، و ثقة مختلف الهيئات و المؤسسات الدينية و الجمعيات الاسلامية التى حازها الفقيد رحمه الله ، و إن علاقته بدار العلوم ديوبند مؤسسة الهند العلمية و الدينية الكبيرة والنهوض بها بخطى حثيثة نحو التقدم و الرقى و المكانة الخاصة التى نالها فى القلوب و كان يتمتع بها الفقيد المرحوم كل ذلك كان من مزاياه الشخصيته التى لم تتمتع بها شخصية إلا نادراً .

ومن أجل شعبيته و قبوله العام و ارتفاعه عن الخلافات و النزاعات اختارته هيئة الأحوال الشخصية للمسلمين فى الهند التى تمثل مختلف الهيئات الدينية والمؤسسات الاسلامية فى هذه البلاد رئيساً لها وما زال يشغل هذا المنصب الجليل منذ تأسيس هذه الهيئة إلى أن استأثرت به رحمة الله .

إنه حفيد العلامة الشيخ محمد قاسم النانوتوى مؤسس دار العلوم ديوبند رحمهما الله تعالى ، وقد قضى أكثر من خمسين سنة من عمره كرئيس لهذه المؤسسة العظيمة و مشرف عليها و أحرزت دار العلوم فى عهده تقدماً ملموساً فى المجالات المختلفة من التعليم و التربية و التوجيه الدينى حيث لم يكن يحلم به الناس فى العهد الأول من عمرها ، إنه قام بقيادة هذه المؤسسة و الاحتفاظ بها فى الأوضاع الكالحة و الظروف المتأزمة ، و فى عهده و تحت قيادته انعقد فى مارس سنة ١٩٨٠م مهرجانها المئوى الذى كان آخر ذروة من رقيها و ازدهارها .

إنه قرن حياته بدار العلوم و حياتها بحيث لا يتصور إحداهما منفصلة عن الأخرى ، و ليته لم يشهد ما قد شهده فى آخر أيام عمره من حوادث خلاف و شقاق .

لقد بذل بعض محبيه جهوداً فى إزالة أسباب الخلافات التى نشأت ليقضى بقية حياته بنفس الاحترام الذى كان يحظى به ، و لكن الذى يوسف أن مجهوداتهم لم تنجح فى ذلك ، و لقى فى حياته هذه المأساة المؤلمة التى جرحت قلبه و اضطر إلى أن يعيش الأيام الأخيرة من حياته منعزلا عن الاشراف على تلك المؤسسة الكبرى التى كان رمزا لعزه و مسلاة لقلبه ، و غرساً كريماً سقاه بدم القلب ، رفع الله درجاته وجزاه عن خدماته الدينيه والعلمية بما هو أهله ، وحفظ دار العلوم ديوبند و الأمة الاسلامية الهندية من الشرور الفتن .

كان فضيلته عضواً للمجلس الأعلى لدار العلوم لندوة العلماء منذ زمن بعيد ، و كان رجال إدارتها و المشرفون على أعمالها يكنون له كل احترام و تبجيل .

إننى أقدم كلمة العزاء من نفسى و من ندوة العلماء و من الأمة الاسلامية فى الهند إلى أسرته ومحبيه ومتخرجى دار العلوم وأساتذتها وطلبتها ومجلسها الأعلى.

غفر الله له و رفع درجاته